قطوف من كتاب

«شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها»

لفضيلة الشيخ

محمد متولي الشعراوي

(توفي: ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٨م)

دراسة وتقديم

أ.د/ محمد عمارة

عضو هيئة كبار العلماء

عدد جمادى الأولى ١٤٤١ هـ



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

بسم الله الرحمن الرحيم

بطاقة حياة
إمام الدعاة
الشيخ محمد متولي الشعراوي
(١٣٢٩ - ١٤١٩هـ/ ١٩١١ - ١٩٩٨م)

في المأثور الإسلامي، الذي بلغ مبلغ الحكمة: «إن ألسنة الخلق هي أقلام الحق».

وعندما ننظر إلى مئات الملايين من أبناء الأمة الإسلامية، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، وخارج عالم الإسلام، وكيف اجتمعت قلوبها، وتعلقت عقولها، وارتبطت أفكارها بشيخنا الراحل - شيخ العصر وإمام الزمان - الشيخ محمد متولي الشعراوي (١٣٢٩ - ١٤١٩هـ/ ١٩١١ - ١٩٩٨م) نقول - مع المأثور الإسلامي - دون أن نزكي على الله أحدًا: نعم، «إن ألسنة الخلق هي أقلام الحق»، ناهيك أننا - في حالة الشيخ «الشعراوي».. لسنا بإزاء الألسنة وحدها، وإنما بإزاء الألسنة الناطقة بما في القلوب والعقول، فهذا رجل ندر أن اجتمعت وأجمعت على داعية سواه هذه المئات من الملايين، فهو لم يكن - ككثيرين من عظماء علماء الأمة - مفكر نخبة أو فيلسوف صفوة، وإنما كان داعية أمة، تعلقت به الجماهير كما لم تتعلق بداعية في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر.

وفــي المأثور الإســلامي – أيضًا – أن «الحســن البصري» (٢١ – ١٠٠هـــ/ ٦٤٢ – ٧٢٨م) – وكان إمام عصره – الذي رضع في بيت النبوة، ورأت أم المؤمنين عائشــة – رضي الله عنهــا – أنــه – في قراءته للقرآن – يشــبه قــراءة الأنبياء – أن الحســن البصري هذا قد ســمع موعظة واعظ، فلم تؤثر فيه، فسأله:

– يا أخي، أبقلبك مرض أم بقلبي؟!

ذلــك أن فارقًا كبيرًا بين العالِم الذي ينثر المعلومات، حتى لكأنه «بنك معلومــات»، وبين العالم – صاحب العلم النافع – الذي يعيش علمه، والــذي صاغ العلمُ قلبَه ووجدانه، حتى إذا خرجت الموعظة من فمه، وجدت القنوات مفتوحة أمامها إلى القلوب، تستقر فيها، وتعيد صياغتها من جديد.

ومــن هذا القبيل كان الشــيخ «الشــعراوي» – رحمه الله– فحصيلتــه مــن أســرار البلاغة –علــى وفرتها– هــي معلومة مشــهورة ومبذولة في كتب التراث، لكن هــذه المعلومات قد صاغت قلبــه، فجعلته قلبًا نورانيًّا، فلمــا قرأ القرآن في ضوء هذا النور القلبي إذا به يكتشــف من أســرار التركيب القرآني والإعجــاز البياني للوحي الإلهي مــا يمر عليه الحفاظ والقراء صباح مساء دون أن يكتشــفوه، لذلك بهر «الشعراوي» الأمة بالقــرآن الكريم كما لم يبهرها داعية في العصر الحديث؛ لأنه كان قلبًــا متوقدًا، وفؤادًا حيًّا، وعقلًا واعيًا، وإنســانًا صالحًا، ولم يكن «بنك معلومات».

ولقد شاء الله – سبحانه وتعالى – أن ينجز الرجل ما أنجز عندمـا علا صوت الفكـر المادي والإلحادي، مهـددًا بإحداث فتنـة في الديـن والتديـن والإيمـان الديني، فكانت رسـالته الدعوية اصطفاء إلهيًّا، ولبنة في البناء الإسـلامي الخالد على مر التاريخ.

ولد الشيخ الشعراوي بقرية «دقادوس» – مركز ميت غمر – محافظـة الدقهليـة – بدلتا النيل – فـي ١٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٢٩هـ/ ١٥ من أبريل سنة ١٩١١م.

وأتـم حفـظ القـرآن الكريم – بكتّـاب القريـة – وهو في العاشرة من عمره، وأتم تجويده وهو في الخامسة عشرة من عمره.

والتحق بمعهد الزقازيق الديني الابتدائي سنة ١٣٤٥هـ/ سـنة ١٩٢٦م، ثـم بالقسـم الثانـوي، بالمعهـد ذاته، سـنة ١٣٥١ هـ/ سنة ١٩٣٢م.

ونـال شـهادة العالِميـة مـن كليـة اللغـة العربية سـنة ١٣٦٠هـ/ سـنة ١٩٤١م، وحصل على إجازة التدريس سنة ١٣٦٢هـ/ سنة ١٩٤٣م.

وفـي مراحل طلبـه للعلـم، كان خطيبًا مفوهًـا، وزعيمًا طلابيًّا، حتى إنه رأس اتحاد الطلاب وهو في المرحلة الابتدائية الأزهرية، وبسـبب نشاطه السياسـي، وانتمائه لحزب الوفد، ومشـاركاته مع الطلاب في الحراك الوطني، لوحق، وتعرض للسجن والاعتقال أكثر من مرة.

وعقب تخرجه، عمل مدرسًا بالمعهد الأحمدي الديني بطنطا، ثم انتقل للتدريس بمعهد الإسكندرية الديني، ثم إلى التدريس بمعهد الزقازيق، ثم عُين وكيلًا لمعهد طنطا سنة ١٣٧٩هـ/ سنة ١٩٦٠م، ثم مديرًا للدعوة بوزارة الأوقاف سنة ١٣٨٠هـ/ سنة ١٩٦١م، ومفتشًا للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٣٨١هـ/ سنة ١٩٦٢م، ثم مديرًا لمكتب شيخ الأزهر - الشيخ حسن مأمون (١٣١٢ - ١٣٩٣هـ/ ١٨٩٤ - ١٩٧٣م) سنة ١٣٨٣ هـ/ سنة ١٩٦٤م، ثم مديرًا عامًّا لمكتب وزير شئون الأزهر سنة ١٣٩٥هـ/ سنة ١٩٧٥م، ووزيرًا للأوقاف وشئون الأزهر (١٩٧٦ - ١٩٧٨م).

وفي خارج مصر: أعير للعمل مدرسًا بكلية الشريعة - جامعة الملك عبد العزيز آل سعود - بمكة المكرمة - سنة ١٣٦٩هـ/ سنة ١٩٥٠م، ورأس البعثة الأزهرية بالجزائر سنة ١٣٨٥هـ/ سنة ١٩٦٦م.

ثم عمل أستاذًا زائرًا بجامعة الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٩٠هـ/ سنة ١٩٧٠م، ورأس قسم الدراسات العليا بها سنة ١٣٩٢هـ/ سنة ١٩٧٢م، واختارته رابطة العالم الإسلامي - بمكة المكرمة - عضوًا بالهيئة التأسيسية لمؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

ونال عضوية مجمع البحوث الإسلامية - بالأزهر الشريف سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م، كما نال عضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٤٠٨هـ/ سنة ١٩٨٨م، وعضوية مجلس

الشورى سنة ١٤٠٠هـ/ سنة ١٩٨٠م.

ومُنح وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى بمناسبة بلوغه سن التقاعد، وتفرغه للدعوة، سنة ١٣٩٦هـ/ سنة ١٩٧٦م، وحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٤٠٨هـ/ سنة ١٩٨٨م، كما حصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة المنصورة سنة ١٤١٠هـ/ سنة ١٩٩٠م، وعلى جائزة دبي لشخصية العام سنة ١٤٢٠هـ/ سنة ١٩٩٨م.

ورافق الرئيس محمد أنور السادات (١٣٣٧ - ١٤٠١هـ/ ١٩١٨ - ١٩٨١م) في زيارته للأمم المتحدة سنة ١٣٩٩هـ/ سنة ١٩٧٩م، وخطب الجمعة وأم الناس في أول جمعة أقيمت هناك.

وطاف الكثير من ديار العالم الإسلامي، ومواطن الجاليات الإسلامية في الغرب، داعيًا إلى الله، وكاشفًا الشبهات عن الإسلام، كما تناقلت أحاديثه وأماليه أجهزة البث - المسموعة والمرئية - ودور النشر في مختلف بلاد المعمورة.

لقد تميز الشيخ الشعراوي كمدرسٍ للبلاغة، وبرع في إدراك أسرار الإعجاز القرآني، ودخل الإذاعة لأول مرة سنة ١٣٦٩هـ/ سنة ١٩٥٠م، ثم بهر جماهير الأمة عندما أطل من شاشة التلفاز، في عقد الستينات من القرن العشرين ببرنامج «نور على نور» - الذي كان يعده ويقدمه الأستاذ أحمد فراج (١٣٥٠ - ١٤٢٧هـ/ ١٩٣١ - ٢٠٠٦م) - وكان المناخ الفكري - المحلي والعالمي - قد صعدت فيه

جاذبية الفكر المادي، فكأنما كان الشيخ الشعراوي على موعد، إذ اجتذب جماهير غفيرة - عبر مصر والعالم - إلى القرآن الكريم والإيمان الديني، على نحو جعله إمام الدعاة دونما منازع أو منافس، الأمر الذي جعله خصمًا عنيدًا وهدفًا لتطاول الماديين والزنادقة وغلاة العلمانيين.

وإلى جانب عبقرية الدعوة، امتلك الشيخ الشعراوي ملكة الشعر، فكان له فيه عطاء وفير، واكَبَ قضايا الأمة الوطنية والدينية.

وفي الدعوة، كان الإخلاص لله ورسوله ﷺ ولدينه وأمته، مع المنطق، وجدل العقل والنقل، وحقائق العلوم، وخبرات التاريخ، وفقه الواقع، ومقارنات الأديان، وتراث الملل والنحل، آليات حاضرة في خواطر الشيخ وأماليه، الأمر الذي فتح له عقول الخاصة والعامة، وقلوب الجماهير العريضة، على نحو ميزه عن كثيرين من الدعاة المعاصرين.

ولقد انبهر به قِطاع من أهل الثقافة الرفيعة، فسأله واحد منهم - الأستاذ الدكتور حسين مؤنس (١٣٢٩ - ١٤١٦هـ/ ١٩١١ - ١٩٩٦م) - في حوار بمجلة «المصور»:

- من أين لك كل هذا؟!

فأجاب:

- إنه فيض جود، لا بذل مجهود!

فعبر بذلك عن الإخلاص، والتواضع، والفتح الرباني الذي هيأه لحراسة التدين وتعميق الإيمان الديني، في مواجهة

المادية والزندقة والإلحاد.

لقــد قــدم الإســلام – فــي الاجتمــاع والاقتصــاد – بديلًا للرأسمالية والشيوعية كليهما.

وقــدم العقــل ســبيلًا لمعرفة اللــه – ســبحانه وتعالى – وتوحيده، ومــن ثم للخضوع لمنهاج الله الذي يتغيا ســعادة الإنسان في المعاش والمعاد.

كما قدم الإسلام بديلًا وسطيًّا بين الغلو في المادية والغلو في المثالية.

ولقد اســتطاع، بعبقريــة فذة، أن يفتح عقــول الجماهير العريضة لفلسفة الإيمان الديني، على نحوٍ عجز عنه كثيرٌ من الفلاســفة والمتكلمين، فكان «جامعة علمية شعبية»، انتقلت إلى الناس في منازلهم ومنتدياتهم، فنافست مدارس الفلسفة وجامعات العلم وتفوقت عليها.

ولقــد لفت الأنظار إلــى أن إعجاز القــرآن الكريم لا يقف فقط عند الكلمة والآية والســورة، وإنما يشــمل كل حرف من حروف هذا الذكر الحكيم.

وغير ميدان الدعوة، كان الشــيخ الشعراوي قلبًا كبيرًا في ميدان الإحسان.. فله في العمل الخيري مآثر وعطاءات فرجت الكثير والكثير من كُربات الفقراء والمحتاجين.

وعندمــا انتقــل إلــى رحاب ربه فــي ٢٢ من صفر ســنة ١٤١٩هـــ/ ١٧ مــن يونيه ســنة ١٩٩٨م ودَّعتــه الجماهير الغفيــرة وداعًا غير مســبوق فــي جنازات العلمــاء والزعماء،

ودفن في قريته «دقادوس» - عليه رحمة الله - .

هذا هو شيخ العصر وإمام الزمان - الشيخ محمد متولي الشعراوي - الذي خلف لنا مع السيرة العطرة، والقدوة الحسنة، آثارًا فكرية هي أمالي جمعها المحبون والناشرون بلغت عناوينها نحو الستين.. منها:

١- خواطره حول القرآن الكريم - في العديد من المجلدات.

٢- كتاب الفتاوى الكبرى - في عشر مجلدات.

٣- من نبض الرحمن في معجزة القرآن - طبع بالإنجليزية في المملكة العربية السعودية.

٤- القضاء والقدر.

٥- السحر.

٦- الربا.

٧- الرحلات.

٨- الغيب.

٩- قصص الأنبياء.

١٠- قصص الحيوان في القرآن الكريم.

١١- معجزة القرآن.

١٢- الإسراء والمعراج.

١٣- ١٠٠ سؤال وجواب.

١٤- محمد ﷺ.

١٥- خطب الشعراوي.

١٦- الخير والشر.

١٧- المرأة في القرآن الكريم.
١٨- شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها.
١٩ - الحلال والحرام.
٢٠- التربية الإسلامية.
٢١- عقيدة المسلم.
٢٢- المختار من تفسير القرآن الكريم.
٢٣- الجهاد في القرآن الكريم.
٢٤- خطب الجمعة والعيدين.
٢٥- ردًّا على الملاحدة والعلمانيين.

وهو تراث لا يزال حيًّا وفاعلًا في عقول الأمة وقلوبها، حتى الآن، وإلى أن يشاء الله..

رحم الله شيخ الدعاة وإمام الزمان - الشيخ محمد متولي الشعراوي - وألحقنا به في الصالحين[1].

---

(١) انظر:

١- «الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة» جـ٢ - الطبعة الثانية - القاهرة سنة ١٩٩٢م.

٢- «موسوعة الفلسفة والفلاسفة» د. عبد المنعم الحفني - جـ٢ - المطبعة الثانية=

وفي هذا المناخ الفكري والأيديولوجي ظهر الشـيخ محمد متولي الشـعراوي، بتوفيق إلهي، ودونمـا مقدمات منظورة، ليشـيع موجـاتٍ وموجـاتٍ مـن المنطـق الإيمانـي والإيمان العقلانـي، انطلاقًـا من تفسـير غير مسـبوق لآيـات الله في كتابه المسـطور، تعانق آيات الله في كتابـه المنظور، وعلى نحو اجتذب مئات الملايين من المسـلمين، الذين لم تكن لهم مـن قبل اهتمامات بالفكر الديني والمنطق الإيماني، فاجتذب الشـيخ إلى الديـن والتدين جماهير لم يسـبق لهـا مثيل في تاريخ الدعوة والدعاة.

ولقـد أصبح الشـيخ الشـعراوي - منذ عقد السـتينات - واحدًا من أبرز حُراس الإيمان الديني، والتوجه الإسلامي، وفي مقدمة المناهضين للغزو الفكري، والخصوم الألداء للملاحدة والعلمانيين - كما نراه في كتاب: «شـبهات وأباطيل خصوم الإسـلام والرد عليها» والذي نقدم إشـارات إلى أبرز المحاور التي جاءت فيه:

١- لقد اتخذ الشـيخ الشـعراوي شـعارًا له حديث رسول

=- مكتبة مدبولي - القاهرة سنة ١٩٩٩م.

٣- «موسـوعة أعلام الفكر الإسلامي» - أ.د/ محمد رجب البيومي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة سنة ١٤٢٥هـ سنة ٢٠٠٤م.

٤- «الموسوعة العربية» - محمد هشام برهاني - دمشق سنة ٢٠٠٥م.

٥- «هذا إسـلامنا: خلاصـات الأفكار» د. محمد عمارة - دار الوفاء - المنصورة سنة ١٤٢١هـ/ سنة ٢٠٠٠م.

اللــه ﷺ الذي يقول: «كُلٌّ مِنْكُمْ عَلَى ثغْرَةٍ مِنْ ثُغُورِ الْإِسْــلَام، فَلْيَحْذَرْ أَنْ يُؤْتَى الْإِسْلَامُ مِن قِبَلِهِ»[٢].

وحتى يقوم بمهمة الرباط على ثغور الإسلام، كان لا بد أن يعي مشــكلات الأمة، والمخاطر المحيطة بها، وبدينها، ليذب عن هذا الدين، وليحصن الأمة ضد مخاطر الاختراق.

ولقد تحدث عن هذه المهمة وهذه الرسالة – في هذا الكتاب سنة ١٩٨٢م – فقال:

«لقد تلقيت في بحر هذا العام ســنة ١٩٨٢م ســبعة عشر كتابًا، كلها من بلاد إســلامية، وهذه الكتب تشــترك في ســمة واحدة، هي ما وصل إلى هذه البلاد من تشــكيكات في دينها، مرة يتصــل ذلك بأصل الديــن والإيمان بإله قــادر، وبعضها يتصــل بالتشــكيك في أمــر الوحي، وفــي أمر القــرآن، وفي رسالة محمد ﷺ ومرة يأتي التشكيك في نظام الإسلام وعدم صلاحيته لقيادة حركة الحياة في ذلك العصر.

٢- بعــض الكتب التــي وصلتني – من نيجيريــا بالذات – تقــول لي: إنا نســتحلفك بالله ألا تترك الإجابة عن شــيء من هــذا المذكور في ذلك الكتاب اتكالًا على أنك تناولته في كثير مــن أحاديثك، فنحن نريد أن تكتب فــي كل قضيةٍ طَلَبْنَا منك أن تكتب فيها.

٣- كذلك تحدث الشــيخ الشعراوي عن ضرورة الوعي بما

---

(٢) أورده المروزي في الســنة عن يزيد بن مرثد مرفوعًا بلفظ «كُلُّ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْــلِمِينَ عَلَى ثَغْرَةٍ مِنْ ثُغَرِ الْإِسْلَامِ، الله الله لَا يُؤْتَى الْإِسْلَامُ مِنْ قِبَلِكَ»، رقم ٢٨، ٢٩.

لــدى الأعــداء، لتحصين الأمة ضــد المخاطر التــي يدبرونها؛ فقال:

«من مصلحة المســلمين لصالح إسلامهم أن يعرضوا على من يتولون تربيتهم وتنشــئتهم الفكر المناهض للإسلام حتى لا يدعوا فرصــة للفكر المهاجم أن يهاجم من خلفهم؛ لأنه إن هاجــم من خلفهم هاجم بشراســة، وهاجــم وليس مع أولادنا دليل نقده.

ونحن فــي الأمور المادية، حين نتخوف على أبنائنا مرضًا من الأمراض القاتلة نقوم بتحصينهم ضد هذا المرض.

إن خصــوم الإســلام يدرســون الإســلام، ويعملــون لــه الإحصائيــات التي يســتطيعون بها أن يعلنــوا أنهم لم يقولوا ذلك إلا عن دراســة، ولينفُذُوا إلى الأشــياء التــي ربما لم ينفذ إليها الكثير من المؤمنين بالقرآن؛ لأن المؤمنين بالقرآن حين يقــرءون القــرآن يقرءونه بقداســة؛ لأنه كلام الله، والســماع للقرآن بقداســة على أنه كلام الله يسد منافذ النقد؛ لأنه مؤمن أن كلام الله حق وصدق، وهو فوق النقد.

ولذلــك فــإن كثيرًا مــن خصوم الإســلام هم الذيــن نبهوا المســلمين إلى جمال قضايا الإسلام، فالحسود هو الذي ينبه على الفضيلة، أما غير الحسود فلا يتنبه لمثل هذه الأمور التي أثارها الملحدون ضد القرآن الكريم.

٤- وتحــدث الشــيخ الشــعراوي عن تشــكيك الأعــداء في الكتاب المؤسس «القرآن» فقال:

لقد قالوا – في الرسالة التي وصلتنا –: إن القرآن ليس من اللــه في شـــيء؛ لأن الإله لا يمكن أن يتضــارب قوله، والقرآن متضارب في كثير من آياته.

لقد قالوا ذلك في المخطوط الذي عنونوه: «ســفر البرهان في متناقضات القرآن».. وفي هذا المخطوط ادّعاء بأن القرآن يدعــو لعقوق الوالديــن، وإلى معاملة النــاس آباءهم معاملة قاسية:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢)

ففي هذه الآية منع الأولاد من «ود» آبائهم.. بينما يقول في آية أخرى:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(العنكبوت: ٨)

ونحن نقول: إنهم لــم يفهموا الفارق بين الود والمعروف، فالــود: حب القلــب، وحب القلــب يدعو إلى انجــذاب القالب «الجســم».. لكــن المعروف ليس هــو الحب، وإنمــا هو بذل القالب مع من تحب ومن لا تحب.

فالممنوع من الآباء أن يكون لك ودٌّ خالص إذا كانوا كافرين، ولا يمنع أن تكون صاحب معروفٍ للأب الكافر، ومن الممكن

أن تكون صاحب معروف حتى على أعدائك. إذن الممنوع هنا هــو الود؛ لأن الود عمليــة قلبية، والمأمور بــه هنا المعروف، يكون مع من تحب ومع من لا تحب.

إن القرآن نزل باللسان العربي الفصيح، ولا أقول: كل جملة لها مراد ومعان، بل أقول: كل حرف. إن العرب ما أمكنهم أن يأخذوا على القرآن أي مأخذ، وإذا كان في زمن العرب، الذين كانوا يتكلمون العربية سليقة وفطرة، لم يستطيعوا أن يجدوا ثغرة في القــرآن للقدح فيه، فهل يمكن لهؤلاء المستشــرقين الذيــن لا يفهمــون العربيــة أن يقدحوا في القــرآن ويصفوه بالتناقض؟! لا ريب أنهم لن يستطيعوا ذلك.

٥- ولقــد قالــوا: إن القــرآن والحديث القدســي والحديث النبوي هي كلام محمد.

ونحن نقول لهم: هاتوا لي في عالم الإنس إنسانًا له موهبة القول، وســجلوا له ظاهرة أسلوبه، ثم سلوه أن يغير الأسلوب إلى أســلوب آخر، وسجلوا أســلوبًا آخر، ثم اطلبوا منه أسلوبًا ثالثًا، فســتجدونه لا يســتطيع أن يخرج عن أســلوبه أبدًا؛ لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعاني.

فإذا ما جئنا بالأسلوب القرآني، وأسلوب الحديث القدسي، وأسلوب الحديث النبوي، فسنجد أساليب ثلاثة، لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب، أساليب ثلاثة، لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه.

فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأدائية ثلاثة أساليب

بحيث يقول: أنا سأتكلم الآن أسلوب قرآن، وأتكلم الآن أسلوب حديث قدسي، وأتكلم الآن أسلوب حديث نبوي؟

هذا لا يوجد في طاقة البشر.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(الشورى: ٥١)

فالرسول قد أُعطي ثلاثة أساليب للأداء، لا يشترك أسلوب مع أسلوب، ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى.

وأحاديث رسول الله ﷺ بالنسبة للقرآن كاللائحة التنفيذية للدستور أو القوانين المكملة لمطلوبات الدستور.

والقرآن لم يأت كتاب تشريع فقط، وإنما جاء كتاب معجزة أيضًا، وجاء بالتشريع إجمالًا، وترك التفسير والتفصيل لما أُجمل لرسول الله ﷺ.

٦- وإذا كان قد جاء بذلك، وأنتم تنسبونه إلى الكذب، فنقول لهم: فما الكذب؟

كل كذاب يكذب يحاول أن يحقق لنفسه نفعًا لم يوجد قبل الكذب، فما النفع الذي يريده محمد ﷺ حتى يدعوه إلى الكذب؟

إنه - كما نعلم - عاش فقيرًا، عاش مسكينًا متواضعًا، عاش يلبس المرقع، عاش لم يشبع من خبز الشعير، فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا إذن يكذب؟

لو أنه اقتصر على ما كان فيه من أمانة التجارة لعاش في

يسر، وعاش في أمن ورخاء، وعاش في أسرة مترفهة، لم يكن كذلك، لكنه لم يرد لنفسه الحياة، وإنما أراد الله له وهو واهب الحياة.

إن صاحب الكمال ينسبه إلى نفسه، والقرآن المعجزة في غاية الكمال، لم ينسبه إلى نفسه.

إذن، فقول الكفار والملاحدة: إنه كذاب، نقول لهم: إن الكذاب عادة يكذب لغاية. فما الغاية التي من أجلها يكذب محمد؟

لقد كانت حياته حياة هادئة رتيبة في مستوى يحسد عليه، وفي مركز تجارة خديجة من الممكن أن يعيش به عزيز قوم، فما الذي أداه إلى هذا الكذب لنفسه، ليصنع ماذا؟

والمتاعب كلها انصبت عليه بعد قيامه بهذه الدعوة، ثم بعد أن انتصر في الفتح ودانت له الجزيرة وأصبح سيدها، كيف عاش؟

إنه دخل مكة في منتهى التواضع وفي منتهى الانكسار لله، وقالوا: إنه من خشيته وتواضعه لله كانت رأسه وهو على دابته تمس قربوس[٣] فرسه.

ولقد كان يمر الشهر ولا يوقد في بيته نار للطهي، ولا يشبع من خبز الشعير ليلتين متواليتين، كل ذلك يدل على ماذا؟

يدل على أنه ليس هناك سبب للكذب.

---

(٣) القربوس: حِنو السرج، أي جزؤه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره. (المجلة).

لقــد منع أهله من أن يأخذوا حظهم مــن الزكاة وإن كانوا فقــراء. ومنع أهله أن يرثوه: «إِنَّا مَعْشَــر الْأَنْبِيَــاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ»(٤).

إذن فليس هناك سبب يدعوه أن يكذب ليعيش هذه العيشة في هذه الدنيا التي يحاول الناس فيها أن يأخذوا حظهم منها.

كل هذا يدل على أن محمدًا لم يســتلب هذه الزعامة، وإنما وُهبت له من الســماء، وكانت لها تبعات لم يســتفد منها هو، ولم يستفد منها واحد من بنيه، ولا واحد من أهله.

٧- ويقــول الملحدون: إن محمدًا نشــأ في أمــة بليغة، لها فــي البلاغة مجال، ولها فــي الفصاحة تميز، ولهــا في الأداء المستنير ســوابق. فلماذا لا تجعلون مسألة القرآن من محمد سابقة جميلة من هذه السوابق، كما وجد منهم شعراء وخطباء وحكماء؟ ومــا دامت هذه الظاهرة في البلاغة شــائعة، لماذا لــم تجعلوا القرآن من هذه الظاهرة الشــائعة، إلا أنها ظاهرة متفوقة؟

نقــول لهم: إذا كان صاحب هــذه الظاهرة لم يقل بها، ولم ينسبها له، وقال لهم: ليست هذه المعجزة لي، وإنما أنا ناقلها مــن إله بعثني إليكم، بدليــل أنكم لم تجربوا عليّ طيلة عمري أنــي بليغ أو أني أديــب، أو أني كاتب، أو أني شــاعر، أو أني خطيب: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ

(٤) أخرجه البخاري بلفظ: «لا نورث، ما تركنا صدقة» عن أبي بكر، برقم: ٣٠٩٣.

﴿ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦)

إذن، فلا بد أن يكون صادقًا.

٨- ولقد أشــاعوا - فيما وصلني من كتب - أن محمدًا ﷺ رجــل كان يصيبه الصرع، وكل ما حدث مما قال: إنه قرآن أو حديث قدسي أو حديث نبوي، كل ذلك كان نتيجة الصرع.

وللــرد على هــؤلاء نقول: هــل المصروع يمكنــه أن يقول ويردد ما قاله حين صَرَعِه؟

إن المصــروع يفعل، وحين يُفيــق ينكر ما فعل ولا يذكره. ولكن الذي حدث لمحمــد ﷺ أنه كان حين يأتيه الوحي تراه في منتهى الهدوء والسكون، وإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكى مــا أُوحي به إليه، وكتبه عنه كُتّــاب الوحي، فهل يوجد واحد يستطيع أن يأتي بكلام يستغرق الساعة فأكثر، ثم يقال له: أعده كما قلته فيعيده كما قاله؟

لا شــك أنه حين قال فكُتب عنه، وحين قــال ما كُتب فجاء طبق ما قال، دليل على أنه يصدر عن قضية قالها القرآن

﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾

(الأعلى: ٦)

لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر. فهات أي إنسان ليتكلم ربع ســاعة، ثم ســجل عليه ما تكلم به، ثم قل له: أعد عليَّ ما قلت، إن لم يكن حافظًا وربما إن كان حافظًا أيضًا فإنه ينسى ولا يستطيع إعادته طبق ما سجل عليه.

أما الرسول فلا نجد فارقًا بين ما قاله فكُتب عنه، وبين ما يردده في الصلاة بعد أن كُتب عنه.

٩- وفي رد الشـبهات عن تعدد زوجات الرسـول ﷺ قال الشيخ الشعراوي:

إن الذي أبيح له معدود، لا عدد:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٍ ﴾ (الأحزاب: ٥٢)

ذلك حكم ليس لتابع مـن أتباع محمد، إذن فالعدد الأربعة قـد يدور عند تابع محمد في أربعـة، بمعنى أن يتزوج أربعة ثم يطلقهن ثم يتزوج غيرهن، فالعدد دائر، ولكن عند رسـول اللـه غير دائر، فهو محصور بهؤلاء، فلـو مُتْنَ جميعًا لا يحل للرسول الزواج بعدهن بواحدة.

لقد تزوج الرسـول واجتمع عنده تسع زوجات حين شرع الله تحديـد الزوجات بأربع. وكان ﷺ إمـا أن يحتفظ بأربع ويسرح الخمسة، وحين يسرح الخمسة، وهن أمهات المؤمنين، أي محرمـات على أي واحد آخر مـن المؤمنين، لا يحل لواحد أن يتزوج بواحدة منهن.

إذن لو احتفظ الرسول بأربعة وسرَّح الخمسة لم يتزوجن؛ لأنهن محرمات على جميع المسلمين لأنهن أمهات لهم.

لقـد أبـاح لأمته - ممن عنـده أكثر من أربعة - أن يمسـك بأربعـة ويفارق الباقي؛ لأنه يمكن أن يصبحن زوجات لأزواج آخرين، ولكن ذلك في حق زوجات الرسـول ﷺ غير حاصلٍ؛

فإنهنَّ يصبحن بذلك محرمات؛ لأنهن أمَّهاتٌ لجميع المؤمنين.

إذن لا بد أن يكن مستمرات زوجات لرسول الله ﷺ.

ثم إن الرسـول ﷺ وسـنه ٢٥ سـنة تزوج امرأة في سـن الأربعيـن من الكهولة قبل أن يُبعث، بفارق ١٥ سـنة، رغم أن المعروف أن الرجل يتزوج عادة بمن كانت دونه في السن.

وظـل مع خديجـة حتى ماتـت، وعندمـا ماتت مـر بعام الحـزن. ومات عمه وماتت خديجة، فكان لا بد أن يتزوج بمن تقوم بخدمته، فتزوج سـودة بنت زمعة. امرأة تقوم بواجبات الزوجية.

ومن زوجاتـه مَن كانت تتبرع بليلتهـا لأخرى، مع حرص المـرأة على أن تحتفـظ بالزوج - وتلك شـهادة منها بأنها لا تصلـح في ذاتهـا لأن تكون امرأة يقضي معهـا الرجل ليلته. وهذا يدل على أنها إنما تزوجت لمعنى غير هذا المعنى نهائيًّا، فكأنها فهمت من نفسها أنها لا مصلحة لها ولا للرسول إلا أن تكون أمًّا للمسلمين، وهو وسام من الأوسمة.

كذلك نجد أم سـلمة، وعندها أولاد كثيرون من زوجها أبي سـلمة، أراد الرسـول ﷺ أن يجعلها أمًّا للمؤمنين، وأن يلقن الناس درسًا بأن الإنسان عندما يصاب في عزيز يقول:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾

(البقرة: ١٥٦)

«اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا»(٥).

---

(٥) رواه مسـلم في صحيحه بلفظ: «اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها»

حين مات أبو سلمة، وكانت أم سلمة تحبه، قال لها رسول الله ﷺ: قولي:

﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾

«اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَاخْلُفْنِي خَيْرًا مِنْهَا». فقالت: أهناك خير من أبي سلمة؟

فكأن رسول الله يعلمها أن هذا الدعاء لا بد أن يأتي بخير من أبي سلمة.

وحين يكون الذي هو خير من أبي سلمة هو رسول الله، فهذا لا يطعن في أبي سلمة، ولكن حين يكون غير رسول الله، فإن هذا يخدش أبا سلمة، فحين تصير زوجة للرسول وأمًّا للمؤمنين، فهذا يرضيها ويرضي أبا سلمة.

وعندما خطبها الرسول، وقالوا لها: «أوجدتِ خيرًا من أبي سلمة؟» ضحكت وقالت: نعم، وهل يجادل في ذلك أحد؟»

ومن هنا فإن كل زيجة من زوجات رسول الله ﷺ قضية إيمانية يريد أن يثبتها الرسول في قلوب المؤمنين.

ويجب أن يلحظ في زواج الرسول أنه لم يوسع عليه، بل لقد ضُيّق عليه في ذلك؛ لأن الذي له أربعة من أتباع الرسول من الممكن أن يبدلهن إن ماتت واحدة أو طلقها. ولكن الرسول لا يستطيع أن يتزوج غير التسعة، ولو متن جميعًا لا يستطيع أن يتزوج ولا واحدة.

برقم: ٩١٨.(المجلة).

١٠- ومــن الأشــياء التــي يذيعهــا الملاحــدة، ويحاولون جاهدين أن يؤثروا بها على الشباب المسلم أنهم يقولون:

«دعوهــم في إســلامهم الــذي أوقفهم فــي الأرض موقف التخلف، وجعلهم في الكون في منزلة الأتباع».

ونحن نقول لهم:

أكان ذلك الأمر الذي عرض للمســلمين في بقاع الأرض في هذا العصر، هل كان أمرًا لازمًا عليهم كمسلمين في كل عصر؟ الجواب - الذي يجيبونه -: لا.

لماذا؟ لأنهم كانوا يســمون عصورهم في أوروبا العصور المظلمــة، وكنا نحــن في غايــة الازدهار والحضــارة. ونحن إذا نســبنا أي علم موجود الآن وجدنــا أن بذرته ونواته للرواد الأوائل من العلماء المسلمين، وأنهم كانوا القنطرة التي عبرها الغرب إلى الحضارة، وذلك بإقرارهم أنفسهم.

إن نــواة كل حضارة وبــذرة كل علم تقدمي هي من عندنا، وهم بأنفســهم يشهدون أننا كنا متحضرين، وأنهم أخذوا عنا كل شيء من الممكن أن يكون أساسًا لهذه الحضارة.

والإســلام لم ينــزل الآن حتى يُقــال: إن المســلمين بمجرد أن اعتنقوه تخلفوا. لقد نزل منذ أربعة عشر قرنًا، وأول من تأثر به أمة متبدّيــة، أمة أمية في ذلك العالم، وبعد ذلك قادت أممًا متحضرة. ولا يعقل أن يمنع الإسلام ابتكار الأشياء النافعة للجميع.

إن واقــع المســلمين - لا الإســلام - هو الــذي خذل قضية الإســلام، والخصــوم قد جعلــوا حــال المســلمين حكمًا على

الإســلام، وواجبٌ ألا نأخذ من عصيان العاصين الذين اعتنقوا الإســلام دون أن يلزمــوا أنفســهم بتطبيق مناهجــه ومبادئه حكمًا على الإسلام.

نعم، المسلمون اليوم متخلفون، لكن الإسلام ليس متخلفًا، وتخلف المســلمين راجع إلى أنهم لم يكونوا مســلمين، بدليل أنهــم حينما كانوا مؤمنيــن - كما عرفناهم في الصدر الأول - كان دينهم هو الغالب.

١١- وعن العلاقة بالآخر، وماذا نأخذ منه؟ وماذا ندع؟ قال الشيخ الشعراوي:

لقــد خلق اللــه الكون كله بنواميســه وعناصره وأجناســه وقوانينه، وهذه الأمور تخضع دائمًا للتجربة المعملية، ســواء أقــام بها مؤمن أم قام بها كافر، فهــي تعطي ثمرتها للمؤمن وللكافر على الســواء، كما أن الله تعالى بعطاء الربوبية جعل خير الأرض لكل أجناسها، للمؤمن والكافر.

وإشــرافًا إلى هذه القضية في أنه يجب أن نفرق بين أمانة المؤمنين المسلمين لله حين يحملونها وحين يؤتمنون عليها، وبيــن رزق أهل الأرض.. فمســألة الرزق بقانونه ونواميســه وبعطــاء الأرض والشــمس والريــاح والماء كل ذلــك أمر من عطاء الربوبية يســتوي فيه المؤمن والكافر، ولذلك كانت كل التجارب عليه لا تخضع للإيمان، ولكن تخضع لقضية الحركة في الأرض وللتجربة المعملية.

إن كل مَن تحرك واســتنبط وجد واجتهد يؤتى خير الأرض

وإن كان كافرًا.

«أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ»[٦]، أي التي يعطيها العمل، السماء لا دخل لها فيها؛ لأنها أعطت كل الرزق بكل أسبابه ومقوماته وأنتم تجتهدون فيما هدتكم تجربتكم العملية إليه.

إن عالم اليوم فيه موجتان:

الموجة الأولى: موجة نظرية، لكلٍّ نظريته التي يأتي بها حسب هواه.

والموجة الثانية: معملية، أي: علم مادي تجريبي.

والحضارة التي نعيش في ظل ارتقاءاتها الآن تجارب معملية، حضارات توصل إليها من سبقنا، واكتشفوا كثيرًا من آيات الله في الكون.

١١- وإذا كانت الموجة النظرية مبنية على الهوى، فإن المسألة المعملية يستفاد بها، ذلك أن الأمور المعملية لا اجتهاد فيها، وإنما تخضع للتجربة المعملية المادية، والله قد أنطق رسوله ليقول: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُئُونِ دُنْيَاكُمْ»، والسماء لا تتدخل، فقد ذهبت العقول لتبحث، وذهبت الجوارح لتعمل، والأشياء التي خلقها الله لخدمة الإنسان مسخرة، بمعنى أنه لا رأي لها في أن تفعل أو لا تفعل، ما دام الله قد خلقها مسخرة فهي مسخرة للكل، وتعطي خيرها للمؤمن والكافر، وما دامت تعطي خيرها للكل فهي فاعلة بنفسها.

---

(٦) أورده مسلم في صحيحه من حديث أنس بلفظ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» حديث رقم: (٢٣٦٣). (المجلة).

١٢- وعـن جزاء المحسـنين من غير المؤمنيـن بالله، قال الشيخ الشعراوي:

لقد وصلتنا رسالة تقول:

هل الكفار من العلماء الذين أفادوا البشـرية باكتشافاتهم وابتكاراتهم لهم نصيب من جزاء الله في الآخرة؟

ونحن نجيب على ذلك فنقول:

إن قاعدة الجزاء تقضي بأن يكون «الأجر ممن عملت له».

والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩)

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (هود: ١٥)

وهذا في شأن الكافرين.

١٣- وفي الحديث عن التنوير الغربي، والرفض الإسـلامي له، قال:

عندمـا قامت الثـورة - في أوروبا - بـدأت أوروبا ترتقي، فلما ارتقت أوروبا، جاء الذين يكرهون الدين.

ونحـن نقول لهم: لا، أنتم مخطئون في هذا. الدين لا يدعو

مطلقًا للتخلف، والدليل على ذلك أن العلماء المسلمين الأوائل الذين فهموا دينهم، وفهموا لفتة الدين إلى العلم التجريبي، قد قالوا: إننا نبحث في اســتنباط أسرار الله في آياته؛ لأن الله له آيات مكتوبات هي القرآن، وله آيات في الكون، هذه الآيات في الكون آيــات منظورة، وهذه الآيات في القــرآن آيات مكتوبة، ونحــن نريد تطبيق ما نجده في القرآن من آيات مكتوبة على ما نشاهده في الكون من آيات منظورة.

١٤- وفي رفض العلمانية، قال:

إن الخــلاف مــع العلمانيين هو خلاف فــي أصل الأصول، والعلمانيــة هي بدعة المنافقين، ولقد تنبه أعداء الإســلام إلى أن هــذا الدين القوي الحق لا يمكــن أن يتأثر بطعنات الكفر، بــل يواجهها ويتغلب عليها، فما قامت معركة بين حق وباطل إلا انتصر الحق، ولقد حاول أعداء الإسلام أن يواجهوه سنوات طويلــة، ولكنهم عجزوا، ثم تنبهوا إلــى أن هذا الدين لا يمكن أن يُهزم إلا من داخله، وأن اســتخدام المنافقين في الإفســاد هــو الطريقــة الحقيقيــة لتفريق المســلمين، فانطلقــوا إلى المســلمين اســمًا ليتخذوا منهم الحربة التــي يوجهونها ضد الإســلام، وظهرت مذاهب واختلافات، وغير ذلك، وكل هذا قام به المنافقون في الإسلام وغلفوه بغلاف إسلامي، ليفسدوا في الأرض ويحاربوا منهج الله.

١٥- وردًّا على الداعين للتغريب، بدعوى ضرورة أن نعيش العصر، وكأن العصر هو التغريب، قال الشيخ الشعراوي:

إنه لا يصح لعالم مطلقًا أن يقول: يجب أن نعيش العصر، فالعصر هو الشــرع، فإذا اضطرت ظروف العصر إلى أشياء أن نأخذها، والدين لا يمانع فيها فلا مانع، ورجل الدين يجب أن يقول: أن نعيش الدين، وليُخضع العصر لمنطق الدين.

١٦- وفي مواجهة الإلحاد، كشــف الشــيخ الشعراوي عن أن الإلحاد هو المقدمة الممهدة للاستبداد، ففي تمرد الإنسان على سلطان الله قمة الاستبداد، وفي ذلك قال:

إن التشكيك في طبيعة الدين وفي أصله - سواء كان إسلامًا أو مســيحية أو يهودية - هو أمر يراد به نفي القداســات عن أشــياء يعتقدها الناس ليســيروا حركة حياتهم على منهجها، وبذلك يخلو الجو لمريدي التســلط على الكون والمتســلطين على الحكم حتى لا يجدوا منازعًا لهم لا من قانون السماء ولا من قوانين الأرض.

١٧- وفــي نقــض فرضيــة الداروينية - التي هــي ركيزة الإلحاد المعاصر - قال:

يقــول علمــاء الســلالات: إن الســلالات تصيــر دائمًــا في المســتقبل إلــى كثرة، وكلمــا أوغلت في القــدم نقص العدد، فالتكاثــر نشــأ في الاســتقبال، والقلة ناشــئة فــي الماضي، ونتــدرج إلى أن نصل إلى أقل عدد يأتي منه التكاثر وهو عدد اثنين، ولا نقول: واحدًا؛ لأن الواحد لا يأتي منه التكاثر.

والذي حل لغز التكاثر والسلالات وأصل الإنسان هو الدين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ (النساء: ١)

ومن هذا المنطلق وهذه الحقيقة نرد على الذين يقولون: إن الإنسان أصله قرد، نقول لهم: إن كل جنس موجود باستقلاله.

يقول الملحدون: أنتم تؤمنون بإله خرافي ليس موجودًا.

ونحـــن نقول لهم: الإله الــذي تقولون عنه: إنه خرافي، هو الذي فســر لنا الحقائق التي وصلتم إليها، والإيمان بهذا الإله الذي يســيطر علــى الوجود كله، والذي يجــب أن ينفذ قانونه ليمنعهــم مــن أن يكونــوا جبارين فــي الأرض ومتســلطين، ويمنعهم أن يكونوا حكامًا آمرين بأهوائهم.

١٨- وعــن أجناس الوجــود: الجماد، والنبــات، والحيوان، والإنسان، قال:

إن أجنــاس الوجود التي أمامنا متدرجة، جنس يســلم إلى جنس، وتجد كل جنس في خدمة الأجناس التي فوقه.

فالجمــاد «مــاء، هــواء، عناصــر أرض، شــمس، قمر» كل هــذه جمادات هي في خدمــة النبات، تغذيــه بالضوء، تغذيه بالعناصر، الماء يذيب له العناصر ليتغذى.

ثم النبات يخدم ما فوقه، وهو الحيوان، والحيوان يخدم ما فوقه وهو الإنسان.

فالإنسان تصب فيه كل الأجناس لخدمته هو.

أَصُبَّت فيه لخدمته هو بفكره، وبقدرته عليها؟

لا، إنهــا تخدمه بدون قدرة له عليهــا، تخدمه ولا قدرة له، وهــو صغير، وهــو طفل، وهو جنين، شــمس تمــده بالضوء

والحـــرارة، والمـــاء يمـــده بالحياة، والهـــواء يمـــده بالتنفس، والنبات يمده بالطعام، والحيوانات تمده بأشـــياء كثيرة، قبل أن توجد له قوة.

أما كان من العقل أن تبحث عن القوة التي سَـــخَّرت لك ما لا يدخل تحت قدرتك ليكون في خدمتك؟ لقد كان من الواجب عليـــك أيهـــا العاقل أن تقف وقفة لتبحث عن هذا الســـر، الذي سخر لك ما هو أقوى منك.

١٩- وفي تميز العقلانية الإســـلامية المؤمنة عن العقلانية اللادينية، قال:

الإسلام يريد من العقل أن يثبت أن هناك وحيًا، ولذلك قالوا: العقل كالمطية، توصلك إلى حضرة السلطان ولا تدخل معك.

العقل يوصلني إلى إثبات الأمور التكليفية، إلى أن فيه إلهًا، وأنَّ فيه بلاغًا عنه، وأيضًا لأن علوم الشـــرع -كما قلنا- جاءت لتعصمنا من اختلاف الأهواء، ولذلك في العلوم التجريبية، قال النبـــي ﷺ: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِشُـــئُونِ دُنْيَاكُمْ». في الأمور التجريبية المعملية حتى لا يتدخل فيها الدين.

٢٠- وعن التشريع الإسلامي المنظم لكل أمور الحياة، قال:

لقد شمل التشريع الإسلامي كل أمور الحياة، من القمة، من لا إله إلا اللـــه - والتي ربما ينكرها البعض - إلى إماطة الأذى عن الطريق.

لقـــد جاء التشـــريع الإســـلامي بنظام فيه حل لـــكل قضايا الحيـــاة، حل ذهـــب إليه حتى الذين يدينون بغير الإســـلام، لم

يذهبوا إليه تدينًا، ولكن لأنهم وجدوها حلولًا مُثلى لكل قضايا الحياة التي عضتهم.

انظروا إلى موقف الغرب من «الطلاق»، وكيف كان يرفضه، بل لعلهم كانوا يعيبونه على الإسـلام، هذا الموقف انتهى إلى ماذا؟

انتهى إلى أنهم واجهوا مشـاكل لا حل لها إلا بالطلاق، ولذلك كان عليهم أن يطالبوا بأن تكون المرجعية للإسـلام في كل الأمور: اقتصادية واجتماعية وتنظيمية إلى آخره؛ لأن الإسلام جاء بالنظام الذي استوعب كل أقضية الحياة.

٢١- وعن صيانة المرأة بالحجاب قال:

إن المرأة الواعية هي التي تعشق مهمة التسـتر، تعشق مهمة الاحتجاب؛ لأن الحجاب فيه كرامة المرأة.

إن التشـريع لم يمنع أن تدرك، ولم يمنع أن تجد إعجابًا في نفسـك، ولكن التشريع وقف عند العملية النزوعية، إلا في مسألة المرأة، لماذا؟

لأنك لا تسـتطيع أن تفصل الإدراك عن الوجدان، ولا تسـتطيع أن تفصل الوجدان عن النزوع، لماذا؟ لأن العملية سيترتب عليها شيء مادي في تكوينك، هذا الشيء المادي في التكوين إما أن تكبته وإما أن تنطق به، فإذا نطقت به وَلَغْتَ في أعراض الناس، وإن لم تنطق به أتعبت نفسـك، وحمَّلت نفسـك ما لا تطيق، فكأن الله -رحمة بك- قال: أنا سـأتعدى في عملية التشـريح مرتبة النزوع، وأحـرم الإدراك، حتى لا

يوجد وجدان، وحتى لا يوجد نزوع، وبذلك أكون قد رحمتك.

إذن، فالتشــريع الإســلامي حيــن قال للمــرأة: احتجبي، لا تعرضي مفاتنك، هــو تكريم للمرأة، ومنــع للعملية النزوعية التي تنشأ عن الوجدان الذي ينشأ عن الإدراك؛ لأنك إذا أدركت وجدت، وإذا وجدت حاولت أن تنزع.

٢٢- وفي الرد على شــبهة ظلم الإسلام للمرأة في الميراث قال:

إن الإســلام، في ميراث المرأة، لم يكــن ضدها، وإنما كان محابيًا لها.

وليس في كل أحوال الميراث تأخذ المرأة نصف الرجل، بل في كثير من مسائل الميراث تأخذ مثله، كالابنة تأخذ مثل الأب فــي حالات معينــة، والأخوات من الأم يأخــذ الذكر مثل الأنثى تمامًا مستويًا، ولكن المسألة في الأخ والأخت فقط.

إن المرأة غير مســئولة عن نفقة نفســها، فــإن كانت بنتًا تكون مســئولة مــن أبيها، وإن كانــت أمًّا فهي مســئولة من زوجهــا، ومن أبنائهــا، وإن كانت متزوجة فهي مســئولة من زوجها، ولا يلزمها الإســلام أن تنفق من مالها ولو كانت غنية وزوجها فقير. بل على الرغم من فقر المتزوج من غنية، عليه أن يقترض من سواها كي ينفق عليها!

فإذا ما أعطاها الشــرع نصف أخيها فلأن النصف يكفيها إن هي ظلــت دون أن تتزوج، وإن تزوجــت فإن هذا النصف

وفر لها؛ لأنها ستلحق بمن ينفق عليها.

ولكــن الأخ الذي أخذ ضعفها مطلوب منــه أن يبني حياته بزوجة يأتي بها لينفق عليها.

ولذلك كان الكلام المنطقي هو: لماذا حابى الإسلام المرأة؟

والجــواب: أنه حاباهــا؛ لأنه راعى أن المــرأة قد يكون من ســلاحها في الحياة أنوثتها، فهو أراد أن يســتعصمها من أن تستعمل سلاح الأنوثة في حياتها، فأعطاها هذا النصف، فإذا مــا ظلت بلا عائــل يمكن أن يكفيها، وإن جــاء لها عائل فهذا الدخل يكون وفرًا لها.

وواجب على المسلمين في كل بقاع الأرض إن وفدت إليهم شــبهة من هذه الشــبهات أن تكــون عندهم المناعــة الكافية التي تدحضها، والتي تبطل كل الحجج الباطلة التي يأتي بها خصوم الإسلام.

ثم إن الدين - وليس المال - هو معيار التفاضل بالنســبة للرجال والنســاء، هو المقياس بالنســبة للرجــل، وهو بعينه بالنســبة للمرأة، وفي هذا يقول الرسول ﷺ بالنسبة للرجل: «إِنْ جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ»(٧) ويقول أيضًا - في المقياس بالنســبة للمرأة -: «فَاظْفَــرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ

(٧) أخرجه الترمذي في ســنته (١٠٨٤) من حديث أبي هريرة، قال الحاكم في المستدرك ١٦٤/٢، هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. (المجلة).

يَدَاكَ»[٨].

٢٣- وعـن الحكمة الإسـلامية في تشـريع الطـلاق، وعن ضوابطه الشرعية قال:

لقـد امتـاز الطـلاق عن الـزواج بأن الـزواج يتـم بكلمة: «زوجنـي». «زوجتك»، ولكـن الطلاق لا يأتـي بكلمة واحدة، وهي «طلقتك»؛ لأنه يعطي فرصة، وبعد ذلك إذا عز اللقاء في العشرة كان الطلاق أمرًا لا بد منه.

إذن فالطـلاق ليـس بكلمة كمـا يقولون، ولكنـه بكلمات. وكلمـات متفرقـات بمدة، فلم يقـل القرآن: الطـلاق كلمتان، وإنما قال: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ (البقرة: ٢٢٩)

والمرة حدث في زمن، ثم يأتي بعدها حدث في زمن آخر، وبعد ذلك يأتي إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وإذا قالوا: إن محاكم المسـلمين مملـوءة بقضايا الطلاق، فنقول لهـم: ليس ذلك حجة ضد قضية الطلاق في الإسـلام، ولكن قد تكون حجة ضد تطبيق الإسلام في مسألة اللقاء بين الزوج وزوجته، فالذين دخلوا على الزواج بغير معايير الإسلام وقوانين القرآن فمن الضروري أن يحدث بينهم هذا الشقاق.

٢٤- وفـي الرد على مـن يقولون: لمـاذا لا يتعدد الأزواج للمرأة الواحدة كما تتعدد الزوجات للرجل الواحد؟

نقول: إن المرض الخبيث «السرطان» لا ينشأ إلا من تعدد

---

(٨) رواه البخاري في صحيحه، برقم: ٥٠٩٠، ومسلم في صحيحه برقم ١٤٦٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

دماء الرجال فــي المحل الواحد، أما أن يوجد محل واحد لماء واحد فلا خطر منه لمرض خبيث.

٢٥- وعن الغلو المادي في اليهودية قال:

لقد أرادوا أن يجعلوا الله جســمًا يجلس ويضع رجليه على قصعة! وقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْــرَةً﴾ (البقرة: ٥٥)

فهم أرادوا لإله الغيب أن يكون أمرًا ماديًّا. كذلك جاءوا في كل النظــم وجعلوها مادية. وأنت إذا اســتعرضت كل أســفار التوراة فلن تجد شيئًا يتعلق باليوم الآخر أبدًا.

٢٦- وعن الوسطية الإسلامية قال:

إنك لو نظرت إلى دين الله لوجدته قد أخذ جوانب الحُســن فــي الديكتاتورية وترك ملامح القبح فيها، وأخذ الحُســن في جوانب الديمقراطية وترك ملامح الشر فيها، فأعطانا الأمرين بفائــدة وبعدالة، فالأمــور التي يجب أن يبــت فيها بحزم ولا تُترك لأهواء البشــر لها مجال شــرعها الله تشريعًا، ولا يجعل لأحد عليها استفتاء أبدًا، ففي هذه القضية:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾

(الأحزاب: ٣٦)

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾

(المؤمنون: ٧١)

وفي القضية الثانية:

﴿ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ ﴾

(النساء: ٨٣)

﴿ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

إن بعض الناس يرى أن اجتهاده هو الحق، وأن اجتهاد غيره هو الباطل، وأنه باجتهاده يمثل وجهة نظر الإسلام، وهذا لا يمثل وجهة نظر الإسلام. ومن هنا جاء الخلط والتخبط.

إن الله حين يترك نصًّا محتملًا للفهم يجب أن يحترم فيه كل فريق رأي الفريق الآخر.

٢٧- وحول الأمراض الداخلية في الأمة الإسلامية، قال:

إن كل خلاف بين المسلمين يُستغل ضد الإسلام، والذي يصنع شيئًا من هذا إما مفت أو مطبق أو منفذ سيكون مثل الذين يمسكون معولًا يضربون به قضية الإسلام عند خصوم الإسلام.

ولقد رأى الخصوم أن للإسلام مذاهب وطرقًا وطوائف، وكل مذهب يرى أنه هو الأحق أن ينسب إليه الإسلام أو ينسب إلى الإسلام، ويكفر الطوائف الأخرى. وعلى هذا يصبح الإسلام لا مبدأ تجميع للناس ولكنه يصبح مبدأ تفريق.

واستغلوا هذه المسألة، وقالوا: أي إسلام هؤلاء صحيح؟

فإن كان الإسلام صحيحًا في مذهب فالمذاهب الأخرى باطلة، وهكذا دخلوا من باب تمزيق الإسلام بالمذهبية والطائفية.

وهذه الظاهرة إنما نشــأت لخطأ المســلمين في فهم كثير من قضايا الدين الأساسية.

وآفة وجــود المذاهب: أن الأمر الذي تــرك الله فيه الأمر للمشــورة والاختيار والاجتهاد، جُعل عند كل طائفة أمرًا يجب الجــزم فيــه والبــت، وأن الذي يخالــف رأيهم يكــون مخالفًا للإسلام، ويقولون له: أنت لم تفهم الإسلام.

وتلك هي الآفة التي جرّأت علينا الخصوم ليقولوا: إن الإسلام لم يعد دين تجميع وإنما عاد دين تفريق! إذن فالمسلمون هم الذيــن فتحوا الباب وجعلــوا الملحدين يجدون منافذ يدخلون بها علينا ليهدموا لنا قضية إيماننا وإسلامنا.

إن اللــه حين يترك نصًّا محتملًا للفهم يجب أن يحترم فيه كل فريق رأي الفريق الآخر.

فكل الأحــكام الاجتهادية التي تركها التشــريع لاجتهادات البشــر معناها إذن من الله، وأن مــا وصل إليه الاجتهاد يقبله الله، ويعتبره حقًّا في هذه المسألة.

فالشيء الذي ينفذ منه خصوم الإسلام هو ما يفعله بعض علماء المســلمين، أو بعض الأتباع لعلماء الإسلام، حين يرون فــي اجتهاداتهم التي أباح اللــه فيها أن نجتهد في النص أنها أصوب، وأن ما عدا اجتهاداتهم يجب أن تترك، وأن فهمهم هو الحق وما عداه فهو الباطل.

ومــن هنا نشــأت النكبة على المســلمين فــي جميع بقاع الأرض؛ ولذلك نجد أمة مســلمة يُنتقد إسلامها من أمة أخرى، إســلام في دولة ينتقد من إسلام في دولة أخرى. لماذا؟ لأنهم أرادوا أن يجعلوا من فهمهم للأمور المجتهد فيها نصًّا محكمًا، كما أنزله اللــه نصًّا محكمًا، وترتب على ذلك أن المخالف هو على الباطل في زعمهم.

ولينظــروا إلى ثمار ذلك فيما يجدونه من الهجوم علينا في أن الإسلام لم يعد دين تجميع، وإنما أصبح دين تفريق. ونحن في البلد الواحد نشــاهد ذلك الآن، نجــد أننا في كل حي وفي كل مســجد طائفة، ولو نظرت إلى إسلام هؤلاء لوجدته بعيدًا عن إســلام هؤلاء. لماذا؟ لأنهم جعلوا لسلوكهم فهمًا، ومن لم يوافقهم على فهمهم فهو خارج عن الإسلام لا عليهم.

ويجب أن ينظروا إلى تبعات هذه الأشياء الآن، هذه التبعات التي سنشقى بها طويلًا من خصوم الإسلام.

هكذا تحدث فيلســوف الإيمان، وإمام الدعاة الشيخ محمد متولي الشعراوي، في كتابه هذا:

«شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها»[٩].

د. محمد عمارة

---

(٩) نص هذا الكتاب جمع وإعداد وترتيب الأستاذ عبد القادر أحمد عطا. نشرته مكتبة التراث الإســلامي - بالقاهرة - ولقد قمنا - في هــذه الطبعة - بترجمة حياة الإمام الشــيخ الشعراوي.. والتقديم بدراســة وافية بين يدي هذا الكتاب. فلزم الشكر والتنويه بصاحب الفضل في صدور الطبعة السابقة لهذا الكتاب.

مؤتمرات التشكيك في الإسلام

الحمـد للـه رب العالمين، والصلاة والسـلام على أشـرف المرسلين، سيدنا محمد، وبعد:

فلقد تلقيت في بحر هذا العام سـبعة عشـر كتابًا كلها من بلاد إسـلامية، وهذه الكتب تشـترك في سـمة واحدة، هي ما وصـل إلى هـذه البلاد من تشـكيكات في الدين مـرة، وفيما وصل إليه هذا التشـكيك من أصل الديـن، والإيمان بإله قادر مدبـر لذلك الكون، وبعضها يتصل بأمر الوحي، وأمر القرآن، وأمر رسالة سيدنا محمد ﷺ.

ومرة يأتي التشـكيك في نظام الإسـلام، وعـدم صلاحيته لقيادة حركة الحياة في ذلك العصر.

ولقد عرفت مصدر كل ذلك فالمصدر الإلحادي الذي يتصل بنفي الإله القادر الخالق المدبر للكون لا شـك في أنه قد وفد إلينا من الشـرق الشـيوعي، وأما ما يتعلق بالتشكيك في أمر القرآن وأمر رسـالة سـيدنا محمد ﷺ فإنه قـد وفد إلينا من الغرب؛ لأن رائحة الكلام الذي فيه تدل على أنهم يشككون في الإسلام، ولكنهم يؤمنون بدين يأتي من الله بواسطة رسل.

وقد شـاء الله أن يفسر لي ذلك اللغز بما وصلنا من أخبار عن مؤتمرات، عقد أولها في نيسان عام ١٩٧٤م، وعقد الثاني في ولايـة كاليفورنيا عام ١٩٧٧م، وأيضًـا مؤتمر آخر، ختم حصيلة المؤتمرات التي سـبقته، ويدل على أن وراء ذلك قوة هائلـة مادية ودوليـة، وأن الذيـن دعوا إلى هـذه المؤتمرات

هــم صفــوة المفكرين في هذه البلاد، وعلى رأســهم أســاتذة الاستشراق في العالم، وعلماء متخصصون في علوم الاجتماع يدرســونها في الجامعات، وعلوم الإنسان والسلالات، ومعهم متخصصون في دراسة الأحوال الاجتماعية في الأمم النامية.

ولقد انتهت تلك الدراســات والأبحاث إلى توصيات أعلنت، وتوصيات أخرى سترت...

وافد الإلحاد

أما الموجة التي وفدت إلينا من الشرق فأمرها معلوم، وهو التشكيك في الدين، سواء كان إسلاميًّا أو مسيحيًّا أو يهوديًّا.

وذلــك أمر يــراد به نفي القداســات عــن أشــياء يعتقدها الناس، ليســيِّروا حركــة حياتهم على منهجهــا، وبذلك يخلو الجــو لمريدي التســلط على الأمم، والمتســلطين على الحكم، حتى لا يجدوا منازعًا لهم، لا من قانون السماء، ولا من قوانين الأرض.

وإذا كان الأمر سيسير منطقيًّا، فإننا نتكلم أولًا لنرد وافدة الإلحاد عن أبنائنا المسلمين.

وكل مــا تــدور حوله وافــدة الإلحاد من الأفــكار ليس هو مناقشة النظام الذي جاء به الإسلام، وإنما هو مناقشة النظام الذي جاء به الدين الذي يســبق الإسلام، فلم تنشأ هذه الوافدة لمناقشة الإسلام ابتداء.

فهــم يقولون: لا نجد في ذلك الدين نظامًا يحكم لنا حركة الحيــاة، وهم صادقون في ذلك، ولكنهم لــو امتد بهم البحث قليلًا، فدرسوا نظام الإســلام، لوجدوا الشيء كل الشيء الذي يحكم حركة الحياة بما لا يمكن أن يتفوق عليه نظام بشــري على الإطلاق.

ولذلــك نقول لهم: إنكم قاصرون حتى في دراســة الأديان التــي تهاجمونها، فالمســيحية لم تأت لتنظــم حركة الحياة، ولكنها جاءت لتعطي شــحنة إيمانية وجدانية، وهذه الشحنة

هي التي كانت مفقودة عند اليهود.

فاليهود سيَّروا الأمر كله ماديًّا، لدرجة أنهم أرادوا أن يجعلوا الله جسمًا، يجلس ويضع رجليه على قصعة، وقالوا لموسى:

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

(البقرة: ٥٥)

هم أرادوا أن يكون الله إله الغيب أمرًا ماديًّا، وكذلك جاءوا في كل النظم وجعلوها مادية، ولو أنك استعرضت التوراة بطولها، فإنك لن تجد شيئًا يتعلق باليوم الآخر أبدًا.

إذن فالمسيحية لم تجئ لتنظم حركة الحياة، حتى يقال في الفلسفة الشيوعية: إنها دين لا ينظم حركة الحياة، ونحن جئنا لننظم حركة الحياة.

وإذا قلنا لهم: إذا كنتم تريدون تنظيم حركة الحياة؛ فلماذا بعدتم عن دراسة الإسلام؟ فادرسوه إذن لتصلوا إلى ما تريدون؟! قالوا: إن مصدر الإسلام خرافي لا وجود له.

فكأنهم نقلوا البحث من بحث نظم الإسلام إلى البحث عن المصدر الذي جاء منه الإسلام، وما دمت تقول لنا: إن الدين الذي جاء بنظام ينظم حركة الحياة جاء من إله خرافي. فإنا نقول لك: إنك جئت بنظام الشيوعية وقلت: إنه من عندك؛ فخذ هذا النظام الإسلامي وقارنه بنظامك، ولو على أنه حصيلة نظام إسلامي نسب إلى إله أنتم تقولون: إنه خرافي.

ناقشوا إذن قضية النظام في ذاتها، وابتعدوا عن مصدر

ذلــك النظام؛ لأننا لا نريد أن تؤمنوا بذلك الإله، ولكننا نريد أن تقارنوا نظمكم بنظمنا.

نحن نقول: إنها من الله. وأنتم تقولون: لا إله. إذن فناقشوا نظامًــا بنظــام؛ فلو فعلتم ذلــك، ثم جئتم إلــى أي جزئية من جزئياتكم لتبحثوها، فستجدون التطبيق يُفسد قولكم.

التطبيــق الذي طبق منذ عام ١٩١٧م إلى الآن في كل دولة من الدول التي وقعت تحت ســيطرة هذا المنهج من الفكر، لم يؤد إلى ثمرة، بل بالعكس، أدى إلى خراب.

فــإذا ما نظرنا إلــى هذه النظــم، وجدنا أن الإســلام يأتي بالرحمــة الهينــة اللينة، لينشــئ جيــلًا مبنيًّا على شــيء من الهوادة، لا شيء من العنف، فهو حينئذ لا يريد ما تريدون.

أنتــم تقولون: إنكم نظمتم حركة الحياة في الأرض، ونحن نقــول لكم: لا، أنتــم لم تنظمــوا حركة الاقتصــاد للناس في الأرض، بل عمدتم إلى حصيلة جهد أناس لتفرقوها على أناس لم يجدُّوا ولم يعملوا.

وكان من الأصلح أن تجعلوا الناس سواسية في الحركة إذا أردتم أن يكونوا ســواء في الإنتاج والمحصول والغلة، ولكنكم أخذتــم من قــوم تعبوا؛ لتعطوا قومًا لم يتعبــوا، ثم لم ترضوا بهذا أيضًــا؛ لأنكم حكمتم بقضية فلســفية هذه القضية هي: الدعوى ونقيض الدعوى، والجامع بين الدعوى ونقيضها.

الدعوى كانت شراســة الرأســمالية، فالنقيــض جاء ليأخذ السلطة ويعطيها للعمال، ضد الرأسمالية، ولكن العمال بشر

أيضًـــا، قد يأخذون هذه الســلطة، وبعد ذلك يطغون فيها كما طغى أصحاب الرأسمالية.

فقلتـــم: لا بد مـــن أن توجد هيئة تجمع بيـــن الدعوى وبين نقيض الدعوى في يد واحدة، وهذه هي اليد الحاكمة فقط.

فأصبحت اليد الحاكمة هي التي تملك الثروة، وتتحكم في العالم، ولا ســلطة لأحـــد بجانبها في أي حركة، وســـموا هذه الهيئة «السيطرة الموجهة».

ونحن نرد على ذلك لنعطي الجيل الإسلامي الناشئ خميرة يمكن أن يرد بها على كل هذه الوافدات.

إن الثورة التي بدأت عام ١٩١٧م، وأشاعت مبادئها، ادَّعت فيما أشاعته، أنها لم تأت بالشيوعية التي يحبون أن يؤصلوها في المجتمع، وإنما جاءت بمقدمة للشـــيوعية، وهذه المقدمة هي «الاشتراكية».

إذن هـــم لـــم يدخلوا في مجـــال الشـــيوعية، ومعنى هذا أن النظام الشيوعي أيضًا من الاشتراكية فيما يريدون.

ونقـــول لهـــم: إذا كنتم قـــد قمتم بهـــذه المقدمـــة لتقدموا للشـــيوعية، فانظروا أتقدمتم إلى الشـــيوعية، أم تأخرتم حتى عن الاشتراكية؟

إنكـــم فوجئتم بواقع الحياة يصـــور أخطاءكم ورعوناتكم، وجدتم أن الشعور بالنفعية الشخصية في النفس قد انطفأت جذوته، ولـــم يعد هناك وازع في النفـــس للعمل، ما دام الأمر ســـيتركز في أن كل فائض يؤخذ، فلا داعي لأن يجهد الإنسان

نفســه إلا بمقدار حاجته، إن الطموحات البشرية لا تجيء في كل الأفراد، وإنما الطموحات البشرية تأتي في أفراد معدودين، في كل مجتمع، وفي كل عصر.

فــإذا كانت المنفعــة الذاتية هي التي تســيطر على حركة الإنسان إقدامًا وأدبًا وإخلاصًا وغيرة؛ لأن كل هذا سيعود على العامــل، فإن هذا الحافز قد فُقِد في نظامكم؛ مما أدى إلى أن البلاد التي كنتم تُصدّرون منها حبوبكم جاعت حتى أصبحتم أنتم تستوردون الحبوب من الخارج.

فهــذا يدل على أنكــم لا بد أن تتراجعوا فــي النظام، حتى يكون أقرب إلى الطبيعة، إلى نظام يُستغل فيه حب الذات في النفــس البشــرية، حتى يكون له حافز يجعلــه يعمل، وإن لم يكن المجتمــع في باله؛ لأنه إن عمل والمجتمع ليس في باله، فسيدخل المجتمع في الفائدة قهرًا عنه.

فهب أن إنســانًا يريد أن يبني عمــارة، وعنده مال مكنوز، فَيُدخِــلُ اللــه عليه خاطر اســتثمار المال، فيقــول: وما لي لا أستغل مالي في بناء عمارة ضخمة تدر عليّ كذا وكذا؟

نقــول لــه: إن المجتمع ســيفيد من ذلــك أردت أم لم ترد: العامــل، ومصانع الطوب، والأســمنت، والبنّــاء، والكهربائي، والمهندس، ومهندس الديكور، وتاجر الأدوات الصحية، وغير ذلك كثيرون سيفيدون من هذا العمل.

فــإذا نظرت وجــدت أن المجتمع قد اســتفاد منها قبل أن يستفيد منها صاحبها، من أفقر الطبقات إلى أغناها.

إذن فالحركة الذاتية في النفع الذاتي لا بد أن تُوجِد نفعًا للمجتمع ولو لم يكن المجتمع في بال صاحب المال؛ لأن المجتمع سيفيد رغمًا عنه، رضي أم أبى.

إذن فأنتم اضطررتم إلى أن تدخلوا نظام الحافز، إذن فأنتم لم تتوسعوا في نظام الاشتراكية إلى الشيوعية، وإنما رجعتم حتى من بعض أبواب الاشتراكية..

وإذا نظرتم إلى الدعوى الأصيلة، وهي أنكم جئتم بذلك لتخلصوا الدنيا من شرور الرأسمالية، فلننظر في الجهة المقابلة إلى شراسة رأس المال، أبقيت على شراستها؟ أم أعطي العمال الحقوق، والراحات، والمكافآت؟

إذن فلا الرأسمالية سارت في شراستها، ولا الشيوعية سارت في شراستها، تلك مخطئة، وهذه مخطئة، والواقع كذَّب الاثنين معًا.

إذن فلا بد أن تتنازل الشيوعية عن شراستها، وأن تتنازل الرأسمالية عن شراستها، ومعنى تنازل الطرفين المتقابلين أنهما تواجها ولم يتدابرا، وإذا ما تواجها التقيا بالضرورة في منتصف الطريق، ومنتصف الطريق هو الذي جاء به الإسلام.

فلو أنكم نظرتم، لوجدتم الإسلام قد صحح شراسة الشيوعية، وصحح شراسة رأس المال، فلو أنصفتم لجعلتم هذا النظام الإسلامي مُنقذًا لكم مما تورطتم فيه، سواء كان ما تورطتم فيه هو فكرة الشيوعية، أو فكرة الرأسمالية.

فإذا أردنا أن نقهرهم على أن يقارنوا نظمهم بنظام الإسلام

الذي أبقـــى على الحافز، وأشـــاع الخير الفاضـــل، ثم الحركة الإنســـانية، وجدنا أنهم قد أحرجوا، ووجدنا أنهم يذهبون إلى شـــيء آخر لا يدخل في مقـــام المناظرة، ولا تقـــوم به حجة؛ لأنهم فروا من مناقشـــة النظام، ومقارنته بالنظام الآخر، إلى الكلام في مصدر هذا النظام.

قالـــوا: الكلام الذي جئتـــم به أيها المســـلمون جئتم به من أصل خرافي، إذن فالنظـــام موجود أولًا، أما كونه ممَّن؟ فهذا أمـــر لا يعنيكـــم، فقارنوا نظامًـــا بنظام وقد قارنتم ففشـــلتم، وتبين تفوق النظام الإسلامي على نظمكم جميعًا، وأنه سابق، ومتميز، وأنـــه لا إذلال فيه لأحد على أحد؛ لأن أحدًا لم يدَّع أنه أتى به ليســـتذل بـــه الناس، أو يحاول بذلـــك أن يجد له مكانًا بين الناس؛ لأنهم يقولون: إنه ليس من عندنا، إنه من عند الله.

لقد بدءوا يناقشون فكرة الله.

نقول لهـــم: هذا فرار من ميدان المناظرة، وميدان الجدال، ما لكم واللهَ، الذي قلنا: إننا جئنا بالنظام من عنده؟

ناقشـــوا نظامًا بنظام، ناقشـــوه على أنه نظام بشـــري في مواجهة نظام بشري آخر، ومع ذلك فسنحاول أن ندخل معكم في النقاش، حتى لا تظنوا أننا فررنا من نقاش هذه المسألة.

إنكم تقولون: إن الإله الذي تنســـبون إليه هذا النظام إله لا وجود له، وأن العالم يســـير هكـــذا بطبيعته، إلى غير ذلك من الكلام.

نقول: لو أنكم نظرتم إلى نظامكم، أيمكن أن يدعي أحد أن

النظـــام جاء هكذا دون مقنن له؟ إنكــم قلتم: ماركس، لينين، إذن فالنظام الذي عندكم لم تســتطيعوا أن تنســبوه إلى قوة خفية، وإنما نسبتموه إلى قوة مادية.

فالنظـــام عندنا جـــاء متميزًا عــن نظامكـــم، ألا تحبون أن ننســبه إلى أحد كما نســبتم نظامكم إلى نـــاس، وحاولتم أن تجعلوهم آلهة.

إنه نظـــام جئتم به لم تقولوا: إنما جـــاء هكذا، ولكن قلتم: إنه جاء معتمدًا على فلاسفة وأساتذة ومدارس وغير ذلك فإذا كان هذا النظام الذي أصبح مرجوحًا بعد مقارنته بالإسلام لم يجـــئ بطبيعته، ولم تجدوه هكذا، أنظام يتفوق عليه تقولون: إنه جاء هكذا من غير أحد؟

وهنا تقولون: لا، إنه جاء من أحد مثلنا.

نقـــول: إن الـــذي جاء بشـــيءٍ عجيبٍ لا يمكـــن أن يتملص منه لينســـبه إلى غيره؛ لأن الناس قـــد تصيدوا كمالات غيرهم لينســـبوها إلى أنفسهم، فإذا ما جاء أحد بهذا النظام المتفوق فهل يمكن أن ينسبه إلى شيء آخر، ويقول: أنا لم أصنعه؟

إن الإنســـان منـــا يدعي ما ليس له، هل يعقـــل أن مثل هذه الكمـــالات تترك بلا دعـــوى، أو أن الذين يحملـــون هذا النظام يريـــدون أن يرتفعوا به عن مســـتواهم، فقالوا: إنه من عند إله قادر؟

فلـــو أنه كان من عندهم لقالوا كما قلتم، ومجّدوا الذي جاء به كما مجّدتم.

إذن فقولكم: إن مصدر هذا النظام خرافي. شيء لا يعنيكم، ولا يدخل في موضوع النقاش.

وأيضًا فإننا لو نقلناكم نقلة قبل أن يكون النظام، فالنظام الــذي تحكمون به لم يكــن موجودًا ثم وجــد، ووجد بموجِد، وأنتــم قلتــم: إن موجِده فلان، إذن كل شـــيء وُجد وطُرح في عالم الوجود لا بد أن يكون له موجِد.

مــا دمتم قلتم: إنكم أتيتم بنظــام لم يكن موجودًا قبل عام ١٩١٧م، وهــذا النظام لم تجدوه هكــذا، ولكن أوجده موجد، إذن فكل شـــيء يمكن أن يكون أثرًا لا بد أن يكون هناك مؤثِّر أوجده.

فالضجــة التي قمنا بهــا وقلنا: إنها إســلام، وانتصر على الفرس والروم، أيمكن أن يكون قد وجد هكذا بلا موجِد؟

دعــوا النظام الذي يحكم حركة الحياة، وابحثوا في الحياة نفســها، هذه الحيــاة التي توجد على ظهــر الأرض في صور مختلفة، أيعقل أن توجد هكذا دون موجد؟

لو أن إنســانًا ما كان في مفــازة، أي صحراء، لا يجد فيها مــاء ولا طعامًا يقيــم حياته، ثم نام، واســتيقظ، فوجد مائدة عليها أطايب الطعام والشراب. أظنه قبل أن يتناول منها لا بد أن يســأل فكــره، ويبحث فيما حوله، ليعــرف مَن أمده بهذا؟ وإن كان مُعجِّلًا فأكل وشرب حتى شبع وروي، فإنه لا بد أن يفكر: من هو الذي أحضر له هذا؟

فلما لم يجد أحدًا يقــول له: أنا الذي بعثت لك بهذا، ولكنه

ســمع صوتًا من بعيــد يحل له اللغز، ويقــول: أنا الذي فعلت ذلــك، ولــم يوجد أحــد يعارضه في هــذه الدعــوى، ألا تصح الدعوى له، ويصبح هو صاحبها؟

إذن فالدين لم يجئ من تلقاء نفســه، وإنما جاء بواســطة أناس، إذن فالأثر لا بد أن يسبقه مؤثِّر.

فلو أنهم نظروا إلى الوجود حولهم قبل أن يوجد منهم هذا النظام، لوجدوا نظامًا يحكم حركة الحياة قد يكون من صنع البشر، وقد يكون من بقايا أديان درست، نقول لهم: تجاوزوا عــن ذلك، وانظروا إلى الأشــياء الثابتة في الوجود، والتي طرأ عليها النظام.

فالنظام جاء ليحكم حركة الحياة، إذن فابحثوا عن الحياة قبل أن تبحثوا عن حركة الحياة.

وما دمنا قد استدللنا على أن كل أثر لا بد أن يسبقه وجود مؤثِّر، وقد ســبق وجود نظام لكم تحكمــون به حركة الحياة الاختيارية وجود مؤثرين أصحاب مدرسة وضعوا ذلك النظام.

انظــروا ما فوق ذلك، وابحثوا في المنظَّم «بفتح الظاء» له، المنظم له هو حركة الحياة بالنســبة للإنسان، والإنسان ليس وحده في هذا الوجود الذي نظمتم له حركته؛ لأن الإنسان إنما هــو جنس من أجناس كثيرة، وأنتم نظمتم للإنســان، ولكنكم لم تنظموا شيئًا لبقية الأجناس غير الإنسان، والنظام الموجود لغير الإنســان لــه موجد، وأنتم لــم تدعوه، وهــذا النظام في أخريات أموره إلى الإنسان.

فالإنســان جنس، وهو جنس أعلى، ومعنى أنه أعلى: أنه لا يوجد في الوجود المرئي للإنسان جنس يفوقه في خصائصه.

أقــول: في المرئي، لأنــه قد يوجد في الغيبــي جنس أعلى من الإنســان إنما نتكلم عن الإنسان المرئي المشهود في عالم الملك، ولا نتكلم عن الأجناس التي توجد في عالم الغيب وعالم الملكوت، لأن ذلك أمــرٌ لم نعرفه إلا عن طريق الدين، وطريق الدين مختلف فيه؛ ولهذا لا يصح أن يحتج به عندكم.

إذن فالإنســان جنس أعلــى، والأجناس الأخــرى دونه في التكوين المسخر، ودونه في المهمة.

فالإنسان إذا نظر حوله فوجد نفسه متحركًا حساسًا، وجد بجانبه جنسًا آخر متحركًا حساسًا هو الحيوان الذي هو دونه، ولكن الإنســان يفخر على الحيوان بأنه مفكر، ومعنى مفكر: أنه يختار بين بديلات متعددة.

الحيوان لا يختار بين بديلات؛ لأنه محكوم لا بنظام بشري، ولكنــه محكوم بنظام قهري وُجِد فــي جِبِلَّته، لم يتعلمه أبدًا، والغايات القهرية القسرية دائمًا لا بدائل لها؛ لأنها أمر واحد.

فأنت مثلًا إذا آذيت قطةً بأي نوع من الإيذاء فلها رد واحد، أمــا إذا آذيت إنســانًا فضربته، فقد يضربــك مثل ضربتك، أو ضربــة فوق ضربتك، أو يوقعك في شــر، أو يســخر منك، أو يعفــو عنك، إذن فهنــاك بدائل متعددة، والــذي يرجح واحدًا منها هو الفكر المميز للإنسان عن الحيوان.

والإنسـان منا يـأكل، فإذا جـاء عزيزٌ عليـه، وعرض عليه الطعـام فإنه يأكل معه أيضًا، ويأتـي ثالثٌ فيأكل معه، ولكن الحيوان بعد أن يشبع لا يمكن أن يأكل أبدًا؛ لأنه محكوم بحكم الغريزة التي لا تجامل، ولا بدائل عندها.

فـإذا كان الإنسـان يختار بيـن بدائل متعـددة، فما الذي يجعلـه يختار بديـلًا على بديل؟ إنما يختـار بديلًا على بديل وفق ما يرى من الخير في البديل الذي يختاره.

وقـد يختلـف الناس فـي تقرير ذلـك الخير على حسـب أهوائهم ومشاعرهم ومواجيدهم.

إذن فلا بد من وجود قوة عليا لتنظم سـلطان الهوى، حتى لا يفسد على الإنسان أمر اختياره، فتتدخل هذه القوة لتفرض نظامًا لاختيار الشيء الذي إن لم تختره يحصل الاضطراب.

وبعـد ذلك تأتي لتجد الحيـوان متمتعًا بفضله على جنس آخر تحته، وهذا الجنس هو النبات، والنبات يمتاز عن الجماد، إذن فالوجـود جنس فوق جنس، وتجـد كل جنس في خدمة الأجناس التي فوقه.

فالجمـاد من المـاء، والهواء، وعناصر الأرض، والشـمس، والقمـر كلهـا فـي خدمة النبـات، والنبـات يخـدم الحيوان، والحيوان يخدم الإنسـان، ولكن الإنسـان يخدم من؟ إنه سيدٌ مخدومٌ من هذه الأجناس كلها، ثم لا يجد له في عالم المرئيات والمحسوسات من يخدمه.

وهذه الأجناس تخدم الإنسان بلا قدرة له عليها منذ كان صغيرًا، أليس من العقل أن نفكر إذن فيمن سخر هذه القوى للإنسان؟

أي قوة تلك التي تأمر الشمس فتأتمر؟ وتأمر القمر فيجيب؟ والماء فينصب؟

إذن فواجب العقل أن يقف ليبحث عن القوة التي سخرت هذه الظواهر، لتكون في خدمته.

فإذا جاء إنسان وصاح: أيها الناس، إني قد جئت لكم بحل هذا اللغز، جئت لأخبركم: من الذي سخر هذا؟ فأبسط الواجبات أن نسمع لهذا الداعي الذي يخبرنا بأن تلك القوة «الله».

يقول الرسول ﷺ ذلك، ويأتي بالمعجزة الدالة على أنه صادق، وبعد ذلك، هل قال الرسول ﷺ: أنا فعلت؟ لا. هو أيضًا خرج من هذه المسألة إنه يقول: أنا لم أفعل.

ولو أنه استغل المعجزة التي لا يستطيع أحد أن يقوم بها، وقال: أنا جئتُ بشيء لا يستطيع أحد أن يأتي به، وأنا الذي فعلت ذلك، فقد يجد من يصدقه، ومع ذلك لم يقل ذلك أبدًا؛ بل قال: أنا تلقيت هذا عن القوة التي فعلت.

ولذلك فقد جلَّى الحق هذه الحقيقة تجلية علمية يتطلبها العقل ويؤيدها فقال:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ

﴿ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

(يونس: ١٦)

يقــول: أنــا أعيش بينكــم، فهل جربتــم عليَّ هــذه الأمور المعجزة؟ إنني لا أدَّعي ذلك، ولكني أنقله عن الله.

ومن العجيــب: أن المستشــرقين يقولون: لمــاذا لا يكون القرآن ثمرة نفث عبقري لمحمد، الذي نشــأ بين أمة فصيحة بليغة؟

ونحــن نقول هذا أيضًــا، ولكن صاحب الظاهرة نفســه لا يدَّعيها؛ فما شأنكم أنتم تنسبونها إليه والآية صريحة في نفي هذه الشبهة.

علــى أن العبقريــة لا تكون في الأربعيــن، وإنما تكون في آخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث.

وإذا كان المستشــرقون يقولون: إنه كذب، وجازت كذبته على أجلاف العرب.

نقــول لهم: ما المــراد بالكــذب؟ كل كذاب يكــذب، فإنما يحاول أن يحقق بكذبه لنفســه نفعًــا لم يكن موجودًا قبل أن يكذب، فما النفع الذي حققه ســيدنا محمــد ﷺ حتى يَدْعُوه إلى الكذب؟

إنه عاش كما نعلم فقيرًا مسكينًا متواضعًا، يلبس المرقعة، ولم يشــبع من خبز الشــعير، وكانت النــار لا توقد في بيوته الشهر والشهرين، فلماذا كذب إذن؟

ليــس للكذب مبرر فــي حياته، لأنه لو عــاش على ما كان

عليــه من ائتمان الناس له فــي التجارة قبل البعثة؛ لعاش في يســر ورخاء وعز بين قومه؛ بل إن المتاعب كلها انصبت عليه بعد هذه الدعوة، إنه لم يرد لنفسه الحياة، بل أرادها له واهب الحياة.

وكذلك لم يجعل لأهله حظًّا في دنيا الإسلام، فقد منع أهله مــن أخذ الــزكاة، ومنع أهله مــن أن يرثوه، وعلــى هذا فليس هناك مبرر للكذب أبدًا.

والملابسات التي مرت به جعلت الناس قسمين:

قسمًا آمن به، وقسمًا تصدى له، والمتصدي لإبطال دعوى مقابلة يجند لها كل مواهبه لينتصر، وما داموا كفروا وجندوا كل قواهم، ثم انتهى أمرهم إلى أن أئمة الكفر تُصْرَع، والباقي يذهــب إليه مؤمنًا، وبعــد أن كان حربًا عليه يصبح ناصرًا له، كل هــذا يــدل على أن محمدًا ﷺ لم يدَّع هــذه الزعامة، وإنما أســندت إليه من السماء، وكانت لها تبعات جسام، ولم يستفد منها واحد من أهله.

وأيضًــا حين يقول رســول اللــه ﷺ: أنا أدلكــم على الإله الذي خلق ورزق وسخر لكم ما في الأرض مما لا يدخل تحت قدرتكــم، ثــم أعلنها في: «لا إلــه إلا الله» وأعلنهــا مدوية في آذان ســادة الجزيرة، أي: الذين ما كانت تستطيع أي قبيلة أن تقف فــي وجوههم، ولكن محمدًا ﷺ يقولهــا في آذان هؤلاء المسيطرين: إن الأصنام التي تعبدونها لا تضر ولا تنفع.

وبعد ذلك ظلت الكلمة منكرة ممن كذَّبها، ولم يدَّع إلهٌ ممن

يعبدون أنه الإله، وظلت كلمة التوحيد دون رد من إله آخر.

إذن فقضية الإيمان انتهت بالصدق وبالواقع، فقولنا: لا إله إلا اللـــه، بقـــي بلا معارض من آلهة أو نـــاس أو من أي جنس منظور أو غير منظور.

وإن لـــم يكتفوا بهذا نقـــول لهم: إن الدين الذي جاء قد حل لكم كثيـــرًا من معضلات الحياة التـــي واجهتكم بمجهوداتكم أنتم.

علماء السلالات حينما ســـردوا السلالات وجدوا أنها تكون دائمًا في المستقبل إلى كثرة، فهم وقفوا عند الظاهرة، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا مع الظاهرة تمشِّيًا يهديهم إلى أصل الدين؛ لأنهم ليس عندهم فكر في أن يذهبوا إلى دين، ولو كان عندهم فكر في أن يذهبوا إلى دين لأصبح من الميســـور على الباحثين أن يذهبوا إليه.

نقول لهم: إن العالم ســـكانه الآن مثـــلًا أربعة آلاف مليون، وقبـــل قرن مـــن الزمان مثـــلًا كان ١٠٠٠ مليـــون وقبله ٥٠٠ مليـــون، وهكذا ســـتنتهي إلى أنـــك كلما أوغلت فـــي القدم قل العدد.

إذن فالتكاثر ينشأ في الاستقبال، والقلة في القدم، ونتدرج في القلة حتى نصل إلى ١٠٠نســـمة، ثم إلى١٠ نســـمات، ثم إلى نسمتين اثنتين، لأن الواحد لا يكون منه تكاثر.

إذن قـــد حُلَّ لغز التكاثر والســـلالات، ولكن: من الذي حله، الـــذي حله الديـــن، لأن الاثنيـــن اللذين كان منهمـــا التكاثر قد

تحدث عنهما الدين في قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)

وهكذا حل لغز الأنســاب والســلالات والتكاثر في الوجود، هذه قضية لا يجادل فيها إنسان.

ومن هذه القضية نرد على من قال: إننا من أصل واحد هو القرد، أو غيره، لأن كل جنس موجود باستقلاله، فالدين الذي سوف تقوم عليه الساعة يقول:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: ٤٩)

فهــذا الإله الذي تقولون عنه: إنــه خرافي. هل حل لنا هذه الألغاز، ومحمد ﷺ بلغها لنا، وكونكم تنكرون رسالة محمد؟! فمــن أين جاء لنا بهذه الحلول إذن؟! تلــك الحلول التي عجز عنها العلم إلى الآن.

وإنمــا دخلنا معهم في البحث هكذا، لنثبت لهم أن كلامهم إنما هو فرار من جدية البحث، لأنهم نقلونا إلى شيء لا يدخل في باب المناظرة.

الوحي والرسول

وقد أشــاعوا فيما أشــاعوا فــي كتبهم أن محمــدًا ﷺ كان رجــلا يصيبه الصرع، وكل ما حدث مما قال: إنه قرآن، أو إنه حديث قدسي أو إنه حديث نبوي، كل ذلك كان نتيجة الصرع.

والرد على هذا أن نقول باختصار: هل المصروع يفيق مما يكون منه في أثناء صرعه؟

إن المصــروع يفعل، وحين يفيــق ينكر ما فعل، ولا يذكره ولكــن الذي حدث لمحمد ﷺ أنه كان حيــن يأتيه الوحي في منتهى الهدوء، وفي منتهى الســكون، وفي منتهى الاستقرار، ولا يحدث له إلا ما يحدث من اضطراب لا رجوع له.

لــم يجربوا عليــه في أثنــاء الوحي كلمة خرجــت منه، ولا تفرُّقًا في جوارحه، وإنما كانوا يلاحظون أشــياء كانت تحدث منــه وهو فــي منتهى الثبــات، وفي منتهى الاتــزان، ومنتهى الاستقرار، فإذا ما انفصلت عنه هذه الحالة حكى كل ما أُوحِي إليه من الله -تعالى-.

والذي يدل على بطلان مزاعمهم: أن الوحي كان ينزل عليه بالنجم[١٠] الطويل من القرآن فيســتغرق وقتًا طويلًا ليحكيه ويقرأه، فإذا ما قرأه وكتبه كتبة الوحي، عاد فقرأه في الصلاة وحين يقرؤه في الصلاة كان يقرؤه كما كتبوه عنه، فهل هناك في الوجود واحدٌ يستطيع أن يقول كلامًا، قد يستغرق الساعة فأكثر، ثم يقال له: أعده كما قلته، فيعيده كما قاله؟

---

(١٠) يعني: المقدار الكبير من الآيات.

لا شك أنه حين قال فكتبوا عنه، وحين أعاد فكان كما كتبوا يقيم الدليل على أنه يصدر عن قضية ذكرها القرآن، هي قوله تعالى:

﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾

(الأعلى: ٦)

لأن هذا أمر خارج عن نطاق البشر.

هاتوا أي إنسان ليتكلم ربع ساعة، ثم سجلوا عليه ما تكلم بــه، ثم قولوا له: أعد علينا ما تكلمت به، فإنه لا بد أن يخطئ، ولكننا نأتي إلى الرسول ﷺ، فنجده يسجل ما يقول في أثناء الوحي، ويقرؤه في الصلاة، فلا نجد فارقًا بين هذا وذاك.

قالــوا: إن محمــدًا يأتي بكلام، فمرة يقــول: إنه قرآن، ومرة يقول: إنه حديث قدسي، ومرة يقول: إنه حديث نبوي. وصنعوا من ذلك مصدر تشكيك، وقالوا: إنه حين كان يروق له أن يقول: ذاك قرآن، يقول: ذاك قرآن، وحين كان يروق له أن يقول: ذاك حديث قدســي، يقول: ذاك حديث قدســي، وحين كان يروق له أن يقول: ذاك حديث نبوي، يقول: ذاك حديث نبوي.

نقــول لهم: إن الــذي أخذتموه لتجعلوه ضد نبي الإســلام هو في صالح نبي الإســلام، وعادة يترك الله بعض الحق عند الأحمق، ليدل على حمقه.

نقــول لهم: هاتوا لنــا في عالم الإنس إنســانًا له موهبة أن يقــول، وما دامت لــه موهبة أن يقول، فســجِّلوا لــه مميزات أســلوبه، ثم اســألوه أن يغير الأســلوب إلى أســلوب آخر، ثم

ســجِّلوا له الأسلوب الآخر، ثم قولوا له: نريد أسلوبًا ثالثًا، فإنه لا يســتطيع أن يتبرأ من أسلوبه الأول أبدًا، وذلك لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشــخص في أداء المعاني، وما دامت له طريقة في أداء المعاني، فإن الأداء ســيأخذ تشخصًا لا يمكن أن يبرِّئ صاحبه نفسه منه.

فــإذا مــا جئنا بأســلوب قرآني، وأســلوب حديث قدســي، وأســلوب حديث نبوي، فســنجد أســاليب ثلاثة لا يمتزج فيها أسلوبٌ بأسلوب، بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه.

فهل يســتطيع بشــرٌ أن يجعــل لموهبته الأساســية ثلاثة أســاليب، بحيث يقــول: أنا الآن ســأتكلم بأســلوب قرآن، ثم يقول: أنا ســأتكلم بأسلوب حديث قدســي، ثم يقول: أنا الآن ســأتكلم بأســلوب حديث نبوي، إن هذا لا يمكن أن يكون في طاقة البشر.

إذن فهو كما هو، القرآن يوحيه الله له، والحديث القدســي يوحيــه الله له، ولكن الفــارق: أن القرآن يأتي مــن الله وحيًا معجزًا متحدى به، ومتعبدًا بتلاوته، والحديث القدســي يأتي وحيًا من الله، ولكنــه ليس معجزًا، ولا متحدى به، ولا متعبدًا بتلاوته.

وأيضًا الحديث القدسي لا تصح بقراءته الصلاة، ولا يمكن أن يكون إلا بطريقة من الطرق التي لم يجئ بها القرآن، فمثلًا القــرآن إنما جاء بطريقة واحدة هي الطريقة الثالثة حيث قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴾
(الشورى: ٥١)

الوحي هو: «إعلام بخفاء» كما يقول العلماء، وهو: الإلهام، وليس المراد به جبريل، والمعنى: لا يمكن لبشر أن يتلقى عن الله [مباشرة]، وأن القدرة الممكنة لا يمكن أن تتلقى عن القدرة الواجبة المطلقة، والطاقات حين تنتقل من قوي إلى ضعيف، لا بد أن توجد بينهما وسائط، هذه الوسائط تأخذ من القوي لتعطي الضعيف، فالقوة الواجبة لا يمكن لأحد أن يتحملها.

فالرسول ﷺ حين كان يتلقى عن الله، إما إلهامًا، وإما أن يتكلم الله من وراء حجاب، وإما أن يرسل رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء.

وهذا كل ما يمكن أن يكون من الاتصال بين الله وبين رسله، مرة يجيء بالإلهام، ومرة يجيء بكلام من وراء حجاب كما حدث ليلة الإسراء، أو كما حدث لموسى حين كلمه ربه، ولكن القرآن لا يمكن أن يجيء إلا من طريق واحد، هذا الطريق الواحد هو: أن يرسل رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء.

إذن فالقرآن لم يَثْبُت إلا من هذا الطريق، أما الحديث النبوي والحديث القدسي فيثبتان بالطريقتين الأخريين.

ولماذا خص الله القرآن بهذا الطريق؟

لأن القرآن معجزة متحدى بها، فلا بد أن يوجد وحي من

الله، ليكــون إما إيذانًا بأن تتغير طبيعة الرســول ﷺ بعض الشــيء، حتى يمكــن أن يتقبل من الوحي، وإمــا أن يتمثل له الوحــي أحيانًــا كرجل، وحينئذ تكــون المســألة خفيفة على رسول الله ﷺ، لأنه بقي على طبيعته، والوحي هو الذي انتقل عن طبيعتــه إلى طبيعة رجل. وذلك كما حدث وجاء، وســأل رسولَ الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، فأجابه، وعجب الحاضــرون، كيف يســأله ويصدِّقــه، مما يدل علــى أنه كان يعــرف الجواب مقدمًا، وإلا لما حكم على كلام الرســول ﷺ بالصــدق، ولذلك زال العجب حينما قال لهم رســول الله ﷺ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١١).

إذن فالوحي يتشكل، وقد يحدث تغيُّر في طبيعة النبي ﷺ حتــى يتمكن من الأخذ عــن الوحي، ولذلك يقول: إنه يســمع حول رأســه مثل دوي النحل، وشهد الناس أن الوحي كان إذا جاءه وهو على الناقة بركت من شــدة الوحي وثِقله، وأنه كان إذا أُوحي إليه ويده على رِجْلِ صاحب له ثقلت عليه حتى تكاد أن ترضَّها(١٢)، وكان يشــتد عليه العرق في اليوم البارد، وكل هذا يدل على أن هناك تفاعلًا حصل لســيدنا رسول الله ﷺ، إيذانًا بأن جبريل قد جاء ليقول له شيئًا.

ولكن الحديث القدسي والحديث النبوي يثبتان بالطريقين

---

(١١) رواه الإمام مســلم في صــحيحه، من حديث عبد الله بن عمر عن أبيه -رضي الله عنهما- برقم: ٨.

(١٢) رضَّ الشيء: كسره، دقه وضربه بشدة. (المجلة).

الآخرين: الأول والثاني مما ذكر الله في الآية الكريمة.

ولذلــك يجــب أن نفهــم أن الاختــلاف بين أســلوب القرآن وأســلوب الحديث القدسي وأســلوب الحديث النبوي لا يجوز أن يكــون مصدر تشــكيك، وإنما يجب أن يكــون دليل إيمان بصدقه ﷺ، وبأن الرسول يعطينا ثلاثة أساليب للأداء، بحيث لا يشترك أسلوب مع أسلوب، ولا تشتبه طريقة أدائية بطريقة أدائية أخرى؛ بل لبعضها خواص التحدي، أما الحديث القدسي والنبوي فليس لهما خواص التحدي، ولولا أن رســول الله ﷺ كان يقول: فيما نقله جبريل عن رب العزة، أو يقول: قال الله -عــز وجل-، ما كنَّا لنفرق بين حديث نبوي وحديث قدســي، ولذلــك رأى بعض العلماء أنه لا يــكاد يوجد بينهما فارق؛ إلا أن الحديث القدسي توقيفي، والحديث النبوي بعضه توقيفي وبعضه توفيقي.

إن اللــه اصطفــى بعض خلقــه وأعدَّهم علــى عينه، حتى يكونــوا أهلًا لتلقي الوحي من الســماء، ليرحمهم جميعًا، بأن جعل مشقة التلقي عن الأعلى مقصورة على هؤلاء المختارين، فلو أن الله خاطب كل إنسان لكان قد تعرض لهذه التغيرات، ولكنه قصر هذه المتاعب على هؤلاء المصطفين الأخيار.

ويدل على هذه المتاعب قوله تعالى:

﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۝٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾

(الشرح: ١ – ٣)

فحينمــا فتر الوحي عن رســول اللــه ﷺ؛ لأن الوحي كان يجيئــه بمشــقاته، وكان يجــيء بتبعاتــه، حتــى إن رســول الله ﷺ كان يقول بعد أن يُسَــرّى عنه: «دثِّروني .. دثروني» وكان يرجف كأن فيه شيئًا من الحمى.

إذن فهذه متاعب تحملها رســول اللــه ﷺ ليأخذ عن أمته الوحي، ولو أن الله أراد أن يخاطب الناس كما خاطب رســول اللــه ﷺ؛ لكان في ذلك العنــت كل العنت على الجميع، ولكن اللــه اصطفى واحدًا لحمل هذه المســألة، ومع هذا الإعداد قد أصابه من المتاعب ما يقول الله فيه:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾

(الشرح: ٤، ٥)

إذن فالشــيء الــذي كان يأتــي أولًا بالمشــقة قــد اعتاده الرسول، حتى كانت المتاعب في المرة الثانية أقل من الأولى، ولذلك قال الله تعالى في سورة أخرى:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾

(الضحى: ٤)

وذلــك لأن العلاقة بين الوحي وبين الرســول كانت صعبة، ولكنه بعد أن كان يفصم عنه الوحي، كان يجد حلاوة ما ألقاه الله إليه، فيعجبه ما أخذ، ولذلك أوجد الله فيه طاقة اشتياقية، والطاقات الاشتياقية تهضم كثيرًا من المتاعب، فتجعله يتمنى أن يحدث له ذلك مرة أخرى.

هذا التمني يرسمه لنا بعض الفلاسفة بصورة فيقول: هب

أنك رأيت شــجرة من التفــاح في أعلى الجبــل، والجبل وعر، والصعــود إليه صعــب، ولكنك تحملت المشــقة فوقعت مرة، وتشــبثت بالصخر مــرة، حتى وصلت إلى الشــجرة، وأخذت منها ثمرة، فأكلتها.

فحيــن تأكل يحدث لك شــوق أن يحدث لــك مثل ذلك، هذا الشــوق يُوجِد لــك طاقة ثانية فوق طاقتك الأولى، أو ينســيك المتاعب، فإذا ما أغراك فإنك تشــتاق إلى تعب تعقبه لذة، أما فــي الأولى فأنت تعبــت بعد أن أدركت لذة، فهــذه اللذة التي أدركتها بعد تعبك الأول هي التي سهلت لك التعب الثاني.

فالرســول حين نزل عليه الوحي أول مرة، فالثمرة لم تأت بعد فلمــا جاءته الثمرة جعل الله له فتــرة توجد له طاقة من الشوق، وطاقة من الحنين، إلى حلاوة ما يصله من الله وهذه الحلاوة يســرت له كثيرًا من المتاعب، ولذلك لم يعد يقول بعد الوحــي: «دثروني.. دثرونــي» ولا: «زملونــي .. زملوني» ولا ترجف بوادره، ولا يقول: «فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ»[١٣]

فقول الله تعالى:

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾

(الضحى: ٤)

معنــاه: إنــك قد أخــذت المتاعــب الأولى، وهــذه المتاعب ستيسر لك الوحي في المرات التالية.

إذن فالحق -سبحانه وتعالى- إنما يعطي لرسوله ﷺ من

---

(١٣) رواه البخاري في صحيحه، من حديث أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- برقم: ٣.

فيضــه عطاءات متعددة؛ عطاء هو قرآن يقول عنه له: تحد به القوم، وعطاء آخر هو أحاديث قدسية، ليست للتحدي، وعطاء ثالــث هو أحاديث نبويــة، يفوضه فيها ولذلــك ليس الحديث النبوي كله كلام؛ بل إن رأى غيره تكلم فســكت ولم يرد عليه فهــذا حديث نبوي، وإن فعل واحد فعلًا فســكت فهذا حديث نبوي.

والحديــث النبــوي أحيانًا يكــون توقيفيًّــا، وأحيانًا يكون توفيقيًّا، والحديث القدسي توقيفي من الله، بدليل أن الرسول ﷺ حينمــا يعرضه يقول: عن رب العــزة، أو قال: رب العزة، دلالة علــى أنه من الله، ومن الحديث نفســه يدل على أنه من الله، واللــه هو المتكلم، أما الحديث النبوي فمنه ما ألهمه الله أن يقوله، ومنه ما قاله بتوفيق الله تعالى.

الرسول والتشريع

ومما وصلني: أنهم يقولون لنا عن نبي الإسلام ﷺ: أنتم تقولون إن محمدًا لا ينطق عن الهوى، وأنتم تعلمون أن الله غيَّر كثيرًا من أحكامه، فإن كان وحيًا في الأول وفي الثاني فقد تعارضا، وإلا فقد أخطأ؛ لأنه تبع الهوى.

ويقولون لنا: أنتم تقولون: إن القرآن يقول:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم: ٤)

ثم يأتي القرآن ويعدل، وما دام قد عدل، فليس بوحي.

نقول لهم: إن عندكم غباء أو عندكم سوء نية، وتلاعبًا بالألفاظ للوصول إلى هدفكم. انظروا إلى معنى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾

(النجم: ٣)

الله فوضه وائتمنه على أن يقول، بدليل أنه قال له في القرآن:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾

(الحشر: ٧)

إذن فقد جعل للرسول تفويضًا أن يقول ما يشاء، وكان بعض العلماء إذا سئل عن حكم لا يوجد فيه نص من القرآن، وإنما هو من فِعْلِه ﷺ، فالسائل يقول للعالم: هات لي نصًّا من القرآن على أن الأوقات التي فرضها خمسة، أو أن الظهر

أربع ركعات، فكان العلماء يقولون:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ۚ﴾ (الحشر: ٧)

الله شرع الصلاة إجمالًا، وترك للرسول ﷺ تفصيلها؛ عدد ركعات، وعـدد أوقات، وحركات، وكلامًـا، كل ذلك فوض فيه رسول الله ﷺ بمقتضى قوله:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ۚ﴾

ونقـول لهـؤلاء: هاتـوا لي نصًّا مـن دسـتوركم يقول: إن الموظف الذي يتخلف خمسـة عشـر يومًا يُفْصَل. لا نص في الدسـتور يقول هذا، ولا حق للمفصول أن يقول: إنكم خالفتم الدسـتور، لأن الدسـتور ينص علـى القواعد العامـة، ويترك التفصيل الجزئي للسلطة.

فالرسول يجيء له أمر إجمالي من الله، ثم يقول لنا:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ۚ﴾

وهذا ما نسـميه باللائحة التنفيذية، أو المذكرة التفسيرية، أو القوانين المكملة.

وهنـاك نزعـة جديدة بيـن المسـلمين تقـول: لا نعترف بالمذاهب الأربعة، لا الشـافعي ولا أبـي حنيفة، ولا مالك، ولا أحمد، كل هؤلاء لا نعترف بهم ثم بعد ذلك تطاولوا على حديث رسول الله ﷺ.

نقول لهـم: أنتم تصلـون الظهـر أربعًا، والعصـر كذلك، والمغـرب ثلاثًا، وهكـذا، فهاتوا أنتم دليلًا علـى ما فعلتم من

القرآن حينئذ لا يستطيعون أن يأتوا بالدليل.

نقول لهم: هذا هو الدليل:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾

هــذا هو الدليل على أن ما جاء في القرآن إجماليًّا يجيء به الرسول ﷺ تفصيلًا.

والله تعالى يقول:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾

(المائدة: ٩٢)

فكرر الأمر بالطاعة للرسول وهناك:

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾

(آل عمران: ٣٢)

ومرة أخرى:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾

(النور: ٥٦)

فقط.

فتشــريعات الله التي أمرنا الحق أن نطيعه فيها: تشــريع اشــترك فيه الله والرسول، الحق شرع، والرسول شرع أيضًا، فهذا نطيع فيه الله ونطيع فيه الرسول.

وتشريع آخر شرعه الله وبيَّنه الرسول، فهذا نطيع فيه الله والرسول:

وتشــريع آخر لم يشرعه الله، وإنما شرعه الرسول وانفرد

به وهذا نطيع فيه الرسول.

إذن فمعنى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾: أن الوحي إما أن يجيء بالأمر جملة وتفصيلًا، وهذا ليس للرسول فيه عمل، وإما أن يجيء الأمر جملة، ويعطي الله قضيته تفويضية للرسول في أن يشرع، كما قال:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾

فإن حكم الرسول حكمًا ثم جاء الحق وعدّل له فيه وصوبه له، فهذا دليل على أن ذلك فيما فوض الله فيه الرسول، فحكم فيه بما تقتضيه الفطرة الإيمانية البشرية، ولكنه لم يكن هناك حكم من الله فعدل عنه رسول الله ﷺ نفسه.

هذا هو معنى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾

لم يكن هناك حكم من الله، ولكنه بمقتضى التفويض من الله قال بمقتضى الفطرة الإيمانية البشرية، وبعد ذلك يدلنا الله على أن رسول الله ﷺ صادق في الكلام عنه، فترك رسول الله يتكلم بالفطرة البشرية الإيمانية، ولكن الله أعلى حكمة من الرسول، فيعدل له ليعرفه أنه لم يفوضه ويتركه لبشريته ليقول ما يشاء، فإذا جاء بشيء تحكم به البشرية على مقتضى حكمتها يعدل الله له، فإذا ما قال رسول الله ﷺ: إن ربي عدّل لي الحكم، دل ذلك على أن الرسول صادق في الكلام عن الله، وأنه لا عزة له من الله، ولا كبرياء له أن يصوب له ربه.

فكل ذلك يثبت أنه مأمور، ولكنه حتى في حالة عدم

موافقتــه للحق لا يقال: إنه أخطــأ؛ لأن الخطأ أن توجد عندك قاعــدة صوابيــة فتخالفهــا، فيحاول المصحــح أن يعدل لك؛ بمعنــى أن يقــول لك: إن قولك لا يتفق مــع القاعدة الصوابية التي أعطيتها لك.

القاعدة مثلًا أن الفاعل مرفوع، فإذا نطقه الناطق منصوبًا صوبناه له، وقلنا: إنه أخطأ فصوبناه؛ لأن عنده قاعدة صوابية.

ولكــن الرســول ﷺ في المواضــع التي عدّلت لــه لم يكن عنــده فيها حكم مــن الله، بل هو يقــول بمقتضى التفويض، وبمقتضى الفطرة الإيمانيــة، ولكنه إن وافق الحق أقره، وإن لم يوافــق الحكمة العليا عــدل له الحكمة البشــرية بالحكمة الربانية.

وقد بحثنا عن الرســول ﷺ بعد ذلــك فوجدنا أنه مأمون، لم يســتح أن يقول بعد ذلك: صَوَّبنــي ربي. مما يدل على أنه مأمون على كل ما يقول.

إذن فقول الله تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾

معناه أنه لم تكن عنده قضية فخالفها ليخدم هواه.

ولنأخــذ قضيــة زيد بن حارثــة، زيد بن حارثــة كان عبدًا لخديجة -رضي الله عنها- ووهبته خديجة لرســول الله ﷺ، وجــاء أبوه وقد عرف أنــه في مكة، وأراد أبــوه أن يأخذه من رسول الله ﷺ، فخيَّره رسول الله ﷺ بين أن يذهب إلى أبيه، وبين أن يبقى معه، فاختار أن يبقى معه.

لقد قال زيد وهو حِبُّ رسول الله ﷺ: ما كنت لأختار على رسول الله ﷺ أحدًا، ولم يرض أن يذهب مع أبيه.

فأراد رسول الله ﷺ بالحنان البشري أن يكافئ زيدًا على اختياره له، فدعاه: زيد ابن محمد، بعد ما كان اسـمه: زيد بن حارثة.

فاللـه تعالى لم يوافق على مسـألة التبني هـذه، وأراد أن يبطلها عند رسول الله ﷺ، وعند غيره، فأنزل قوله تعالى:

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(الأحزاب: ٥)

أكان هناك حكم بألا يعدل عن انتساب الأبناء إلى الآباء، ثم جاء محمد وعدل عن هذا الحكم ليقول: زيد ابن محمد؟

لم يكن هناك حكم، وإنما صنع محمد ﷺ ذلك ليرد جميل زيـد حين رغب عن أبيه، وأحب البقاء معه. ولذلك فقد أنصف الحق -وهو الحكيم- رسول الله ﷺ فقال:

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

وأقسـط أفعل تفضيل، من القسـط، وهو العدل، يعني هو أعـدل عند الله يعني أكثر عدلًا، يعنـي أن محمدًا ﷺ لم يكن فعلـه ظُلمًا وجورًا، ولو أنه تعالـى قال: ادعوهم لآبائهم فذلك هو القسـط عند الله، لـكان فعل محمد جـورًا وظلمًا، ولذلك قال: أقسط.

فكأنه تعالى قال لرسـوله: أنت فعلت القسط والعدل، لأنك أردت مكافأة زيد على حبه لك، ولكن أنا عندي قضية أعدل

﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ ﴾

(الأحزاب: ٥)

فــكأن محمدًا ﷺ بدعوتــه زيدًا: «زيد ابــن محمد» عادلٌ، ولكن الله أعدل، والرســول لا يستنكف أن يقول: لقد عدّل الله الحكم، وعلى كل حال فهو لا ينطق عن الهوى.

ونقول لهم أخيرًا: هاتوا لنا مصروعًا مثل صرعته، ينشــئ لنا هذا النظام الهائل، الذي يحكم حركة الحياة كلها، من قمة لا إلــه إلا اللــه، إلى إماطــة الأذى عن الطريق، فهــل يعقل أن يكون هذا النظام الهائل حصيلة الصرع كما تقولون؟

***

زوجات الرسول

وبعد ذلك يتطرقون إلى أشــياء أخرى، هذه الأشياء تتعلق بشخصية الرسول، وقد وضعوا قواعد، وحملوها على الرسول، ثم جعلوها محل مؤاخذة ولوم.

ونحــن نقول لهــم: أنتم تخلطــون القضايا، لتقيســوا بها كمــالات رســول الله، وتقيســون كمالاته بقضايــا تصنعونها لكمالات من عندكم، وما دمنا آمنا به رسولًا، فنحن لا نؤمن به رســولًا ثم نضع له مقاييس الكمال من نفوســنا، لنزن الأمور التي فعلها على مقاييسنا، ولكن الكمال ما فعله.

أنا آمنت به رسولًا، فالكمال ما فعل وما لم يفعل.

الله قد ائتمنه على أن يبلغ منهجه.. وما دام قد ائتمنه على أن يبلغ منهجه، فأمانته على نفسه أولى به من أمانته عليَّ أنا.

إذن لا تناقش أشــياء على موازين أنــت تدعي أنها موازين كمال، ثم تنســب فعل رســولنا إليها؛ لتقول: إن هذه الكمالات غير ثابتة.

ومن هذه الأشياء مسألة تعدد زوجات الرسول.

ما دمت قد كذبته رســولًا، فلماذا تؤاخذه فعل أم لم يفعل؟

الــذي يناقش في أنه فعــل أو لم يفعل هو من نســتكثر عليه أن يفعل لأنه رســول، فالقضية الأصلية إذن أنه ليس رســول عندكــم، فــكان يجــب ألا تلوموه علــى تصــرف، ولذلك كان النقاش بيننا وبينك غير متكافئ؛ لأنك تنظر إلى فعل معزول

عن رسول، ونحن ننظر إلى فعل منوط برسول.

نقول: هل الرســول جاء والناس يُعدِّدون، أو جاء ليشــرع التعدد في الزوجات؟

بل الرسول جاء قومًا يعددون، فهو حين عدد لم يكن بدعًا بينهم في هذا التعدد؛ لأن هذه المسألة إن سبقه فيها رسول لم يتزوج، فقد ســبقه فيها رسل كثيرون تزوجوا أعدادًا متعددة، فلمــاذا نجعل الواحد هــو المرجح[١٤]، ولا نجعــل الكثرة هي المرجحة؟

الواحــد إنما جاء لحكمة، والســابقون قبله عــددوا لحكمة فالرســول لم يشــرع التعدد، وإنما جاء والتعدد نظام قائم له ولكل الناس.

لكن الأمر يختلف مع رسول الله ﷺ بالنسبة إلى من تبعه مــن المؤمنيــن، إذ إن الرســول ﷺ جاء لمن تــزوج أكثر من أربعة، فأمره أن يمسك أربعًا، ويفارق الباقي هذا كلام واضح بالنسبة إلى من تبعه من المؤمنين.

ولكــن لننظر: هل كانت الإباحة لأتباع الرســول ﷺ إباحة لمعدود، أو كانت إباحة لعدد؟

الإباحة لأتباع الرســول ﷺ كانت لعدد، أيًّا كان هذا العدد، أربعــة، فإن ماتت واحدة تزوج غيرها مكانها، إن طلق واحدة

---

(١٤) يريد بالواحد الســيد المسيح عليه السلام لأنه لم يتزوج، وقد كان عدم زواجه راجعًا إلى أنه لم يكن له محل إقامة؛ بل كان دائم الترحال لا يســتقر في مكان إلا ليرحل عنه كما تتطلبه دعوته عليه السلام.

يأتـــي بواحدة مكانها، إن طلقهن جميعًـــا فله أن يتزوج أربعًا غيرهن.

إذن فتابع الرسول ﷺ له العدد، أما الرسول ﷺ فليس له العدد، وإنما له المعدود.

والفرق بين العدد والمعدود: أن المعدود إنما أبيح للرسول بذواته، فـــإن ماتت واحدة لا يأتي بواحـــدة مكانها، وإن مات الأربعة عند الرســـول فليس له أن يتـــزوج ولا واحدة؛ إذن فقد أبيح له المعدود، فهن بخصوصهن، قال الله تعالى:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ ﴾

(الأحزاب: ٥٢)

ذلك حكـــم ليس لتابع من أتباع الرســـول ﷺ، إذن فالعدد عند تابع محمد قد يدور إلى أربعين، ولكن العدد عند رســـول اللـــه ﷺ غير دائر، لأنه محصور في هؤلاء، فإنه لا يحل له أن يتزوج غيرهن.

الرسول ﷺ تزوج، واجتمع عنده من الزوجات تسع، وحين شـــرع الله ذلك العـــدد، فالرســـول ﷺ إمـــا أن يحتفظ بأربع ويسرح الخمس، وحين يسرح الخمس فإنهن أمهات مؤمنين، وأمهات المؤمنين محرمات على سائر المؤمنين.

إذن فلـــو ســـرح رســـول الله ﷺ خمـــس نســـاء، لبقين أي الخمـــس بـــدون زواج، لأنهن محرمات على الجميع، ورســـول الله ﷺ حين يشـــرع لأمته أن يمسكوا أربعًا ويسرحوا الباقي،

فهذا الباقي لكل منهن أن تتزوج من رجل آخر.

ولكـن ذلك بالنسـبة إلـى الرسـول ممنـوع، لأن زوجاته محرمات، إذن فليس لهن إلا أن يبقين زوجات لرسول الله ﷺ.

وأيضًا فالمعنى الذي يريدون أن يغمزوا به رسول الله ﷺ مرفوض في تاريخه، لأن رسول الله ﷺ وهو في سن الخامسة والعشـرين تزوج امرأة تكبره بخمسة عشـر عامًا، وهذا على خـلاف القاعدة، فـي أن الرجل يتـزوج دائمًا بمـن دونه في العمر، وظل مع خديجة إلى أن ماتت، ولم يتزوج عليها.

كان ولا بد أن يتزوج بمن تقوم بمسائله، فتزوج سودة بنت زمعة، امرأة تقوم بواجب الزوجية.

بعد ذلك نأتي لنجد في نسـائه من تتبرع بليلتها لضرتها، فهـل تتبرع بليلتها إلا بعد عدل الرسـول ثم تأتي هي وتتبرع بليلتهـا؟ ومعنـى هذا أنها في ذاتها لا تصلـح أن تكون امرأة يقضـي منها الرجـل إربته، فكأنها لـم تـرد إلا أن تكون أمًّا للمؤمنين ومن نسائه في الجنة بصفته وسامًا من الأوسمة.

كذلك تأتي إلى أم سلمة، وعندها عيال، وتقول لرسول الله: إنهـا لم يعد لها أرب، ولكن رسـول اللـه ﷺ يريد أن يجعلها أمًّا للمؤمنين، ويريد أن يلقن الناس درسًـا في أن الإنسان إذا أصيب في عزيز لديه أن يسـتقبل المصيبة بما علمنا رسـول اللـه ﷺ، فنقول: «إنَّا للَّه وَإنَّا إلَيْه رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتي وَاخْلُفْني خَيْرًا منْهَا».

حين مات أبو سلمة -وكانت أم سلمة تحبه- قيل لها: قولي

ما علمنا رسـول الله ﷺ. فقالت: أهناك خير من أبي سـلمة؟ فقد اسـتبعدت أن يكون هناك من هو خير لها من أبي سلمة، فرسول الله علمها أن هذا الدعاء لا بد أن يأتيها بخير من أبي سلمة وتزوجها رسول الله، وأصبحت أمًّا للمؤمنين.

فكل زوجة من زوجات رسـول اللـه ﷺ لها قضية إيمانية يريد الرسـول أن يُثبِّتها في المؤمنيـن، حفصة مثلًا يعرضها عمـر على أبي بكر وعثمان، ويرفضان الزواج بها، ويحز ذلك في نفس عمر، فيتزوجها رسول الله ﷺ.

كل هذا يدل على أن لكل زوجة قصة.. ويجب أن يُلحظ أنه لم يُوسع عليه في ذلك، بل إنه ضُيِّق عليه.

ذلك ما يمكن أن ترد به على من يقول ذلك في رسول الله، ويجب أن نفتح المجال لبحث هذه الأشياء؛ لأنهم حين تكلموا عن رسـول الله هكذا، فقد دفعوا المسـلمين إلى بيان حقيقة هذه المسألة، فربما كان في نفوس المسلمين منها شيء.

إنهم يريدون أن يشـوهوا نبي الإسـلام، ولكنهم في الواقع خدموا نبي الإسلام.

***

ثالثة الأثافي

ثم ننتقل إلى قضية معنونة في الكتاب الذي وصلنا بعنوان «ثالثة الأثافي» جمع أثفية، والأثفية الأولى جاءت في الإلحاد، والثانية في المرأة وقضاياها المتعددة، وهذه هي الثالثة، هي الداهية الدهياء.

وكلمة ثالثة الأثافي «شـائعة على ألسـنة الناس» يعبرون بها عن الشـيء الفظيع الذي لا يحتمل، فكأن ما قبله محتمل، وما بعده محتمل، أما هو فغير محتمل.

والأثفيـة هي: الحجر الـذي يوضع تحت القِدْر ليسـندها، والقِـدْر حيـن توضع تحتاج إلـى ثلاثة «أثافـي» أي أحجار: حجر على اليمين، وحجر على اليسار، وحجر في الخلف، ولا يضعون حجرًا من الأمام؛ لأنهم يضعون الوقود من الأمام.

فكان الناس قديما حيـن يضعون القدور يكتفون باثنتين فقط: أثفية على اليمين، وأثفية على اليسـار، ثم يكفى الجبل عن الأثفية الثالثة؛ لأنهم كانوا يسـندون القدر من الخلف على الجبل، فالجبل هو ثالثة الأثافي، فهو بالنسـبة إلى الحجرين داهية عظمى.

ما هي ثالثة الأثافي في كلام أعداء الإسلام؟

ثالثـة الأثافي في أنهم قالوا: يجب أن تسـتغلوا ظاهرة في واقع المسـلمين، هذه الظاهرة تنقض الدين من أساسـه، لأن الإسـلام لم يعد مجمِّعا، بل آل إلى أن يكون مفرِّقا، فاسـتغلوا هذه الظاهرة في هدم الإسلام.

الإســلام أول ما جاء جاء ليجمع، أما الإســلام الآن في بلاد المسـلمين فقـد وجد ليفـرق، وآثـار الفرقة ظاهـرة في كل بلاد الإســلام، فالمذاهب الرعناء، والطوائف الحمقى، والفرق المتباينة، وكل طائفة اتخذت لونًا تعصبت له ولم تر الإســلام إلا فيه، بل إنه ربما تســامى بها الأمر، أو تسفَّل بها الأمر، إلى درجــة أن تُكَفِّر المذاهب الأخرى، وتلك قضية جعلت الإســلام الآن وسيلة تفريق، لا وسيلة تجميع.

انظــروا كيف فطنوا إلى واقع المســلمين كمــا قلنا، وأنهم أعــدوا لذلك الأمر الأســاطين من أســاتذة التبشــير، وفطاحل رجال الكهنوت، والمتمرســين بأمر الدعوة والتبشير، وعلماء الجامعات في علوم الأنساب والسلالات والاجتماع والمتمرسين بشئون العالم النامي كله، الدارسين له، الواقفين على حقيقة تكوينه.

ولا شــك أنهم رأوا الإســلام طوائف وفرقًــا ومذاهب، وكل مذهب يرى نفســه وأهله هم الأحق بأن ينســب إليهم الإسلام، ويُكَفِّــرون الطوائــف الأخرى، فعلى هذا يصبح الإســلام مبدأ تفريق للناس، وليس مبدأ تجميع.

فاســتغلوا هذه المســألة وقالوا: أيُّ إســلام هؤلاء صحيح؟ فإن كان الإسلام صحيحًا في مذهب، فالمذاهب الأخرى باطلة، وإن كان صحيحًا في طائفة، فالطوائف الأخرى باطلة.

إذن فيجــب أن تدخلوا مــن باب ضيق الإســلام بالمذهبية والطائفيــة، إلى أن الإســلام ليس هو الإســلام، وأنه إن وافقه

واحد فقد خالفه كثيرون غيره.

انظروا كيف درسوا قضايا الإسلام، وكيف مهَّد المسلمون لهم بجعل دينهم فِرقًا، ليدخل الأعداء من هذا الباب؟ وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ ﴾ (الأنعام: ١٥٩)

هذه الظاهرة كيف نشأت؟ إنما نشأت لخطأ المسلمين في فهم كثير من قضايا الدين الأساسية، وقضايا الدين الأساسية جاءت من عند الله، والله حق، والله حكيم، لا يمكن أن يغفل عن شيء فيه مصلحة للخلق، ولا يمكن أن يجعل لمبدأ يفرق المؤمنين سبيلًا إلى أن يتسلل إلى منهجه؛ لأنه سبحانه وتعالى صبور، وحكيم.

وكثير من المذاهب الوضعية لها ظاهر يروق، وواقع يجذب، مهما كان أمر هذه المذاهب، فمثلًا الشيوعية لها لون يعجب، وبالتطبيق يأتي اللون الذي يتعب ولا يعجب، والرأسمالية لها لون معجب، وتطبيق متعب، إذن كل ناحية من نواحي التفكير البشرى لا يمكن أن تدخل على العالم لتغزوه بقبح اجتماعي، ولكن لا بد أن تدخل عليه بلون جمالي مزخرف، وإن سترت في طيها أشياء.

إذن فكل شيء يتجه إليه الفكر لا بد أن يكون له ناحية جمال تغري، ويستطيع الإنسان أن يقدمها بين يدي مطلوبه، فمثلا في النظام السياسي يوجد شيء اسمه «الدكتاتورية»، ويوجد

مقابل لها على النقيض اسـمه «الديمقراطية»، واعذروني في اسـتعمال هذه الألفاظ الغريبة على اللغة وعلى الإسـلام؛ لأننا أخذنا كل حضارتنا مستوردة من الخارج.

النظـام الدكتاتوري حين يجـيء، لا بد أن تكون فيه فكرة تروق للناس، ثم تجيء في طيه الأشياء التي تكون في صالح الدكتاتـور، فيقولون: إن كل أمـر أردنا أن نصلح به المجتمع إن تركناه حتى نأخـذ رأي جمهور الناس فيه لما اتفقنا على شـيء، ولتعطلت حركة الإصلاح ولَكُنَّا معوقين، إلى أن نصل إلـي أمر اتفاقـي؛ لأن الناس أهواؤهم مختلفـة، ولذلك جاءت القضية المشهورة: «لا يُصلح الشرقَ إلا مستبدٌّ عادل»، ومعنى مستبد عادل: أي لا يستطيع أحد أن يقول له: لم صنعت كذا؟ بشـرط أن يكون عـادلًا، لا يفرض إلا ما هو حـق، وهذا لكي يخرج من غوغائية النقاش، وجماهيرية الاستفتاء.

إذن فالدكتاتوريـة لها لون يفيد في أن كثيرًا من الأمور قد يراد البت فيها بسرعة وحزم، دون أن تتدخل فيها الغوغائية، طالمـا أن الذي يتولى ذلك سـيحتاط لكل الأمـر، ولا يأتي إلا بقضايا عدل، وقضايا حق، أما زاوية الشـر فتأتى من الناحية الثانية.

والديمقراطيـة فيهـا ملمح جمالي، هو أن كل شـيء لا بد أن يتـم برأي الجمهور، ولكن الجانـب المقابل يقول لنا: إننا نؤجـل كثيرًا من الأعمال حتى ينتهي الجمهور إلى رأي، ويرد الديمقراطيـون قائليـن: ولكنها تكون نابعـة من الكل، لا من

واحد يفرض هذا الملمح الجمالي، فهذه فيها حسن، وتلك فيها حسن، وبالتالي في هذه مساوئ، وفى تلك مساوئ، بدليل أنه يوجـد في العصر الواحد القريب الإمكانيات، والقريب الأجواء مبدآن متناقضان، وكان المفروض ما دام العصر عصر ارتقاء يجب أن نرتقي في المسائل.

ولو نظرت إلى دين الله لوجدته قد أخذ ملامح الجمال في الدكتاتورية، وتـرك ملامح القبح فيها، وأخـذ ملامح الجمال فـي الديمقراطية، وترك ملامح القبح فيهـا، فأعطانا الأمرين بتسوية وبعدالة، وأخذ من كل اتجاه خيره.

فالأمـور التـي يجب أن يُبَـتَّ فيها بحـزم، ولا تُتْرك لأهواء البشـر فيها مجال، شـرَّع الحق فيها تشـريعًا لا يجعل لأحد مستدركًا عليها أبدًا، وتلك هي سِمة الدكتاتورية، وهناك أمور يمكـن أن تؤدي جوانب الخيـر على أي وجهة تجيء، وهذه لا تتطلب السرعة ولا الحزم.

إذن فالحركـة الحياتيـة محكومـة بأمريـن: أمر ضروري أن يوجد سـريعًا ومبتوتًا فيه بحزم، وأمـور تأتى هيِّنة، ومن الممكـن أن تخضـع لاختيار الناس، لتحقق لهـم مبدأ الذاتية في الاختيار، حتى لا تكبت فيها أدوات الاختيار، وحتى يشعر الإنسان أن له رأيًا فيما يقنن له.

والدكتاتورية تستغل هذا الأمر فتقول: لو أخذنا آراء الناس في كل قضية لتأجلت كثير من القضايا، ودخل العجاج، ودخل التناظـر، ودخل الاسـتعلاء، ودخلت الجماهيريـة، فلا بد من

أشياء نَبُتٌّ فيها، ذلك ناحية الجمال فيها، وبعد ذلك تستر في داخلها ناحية من نواحي الشر، وتدس فيها نواحي أخرى من النواحي التي لم تكن حيثية وجود الدكتاتورية، والديمقراطية كذلك تدخل علينا من ناحية الجمال فيها.

ومن العجـب أننا نجد المبدأين موجوديـن في زمان تكاد تكون الفـرص فيـه متكافئـة، والإمكانيات واحـدة، والروح السـائدة واحـدة، والارتقاءات واحدة، إذن ففـي كل المذاهب ناحية من نواحي الجمال، ولكنها لا تكتفى بما فيها من ملامح الجمال، بل تدس في أثنائها كثيرًا من ملامح القبح.

والإسـلام يمثل النظرتين، ففي الأمور التي يراد فيها البت والحزم يبتها بتًّا ويحزمها حزمًا ما يشبه حزم الدكتاتورية.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾

(الأحزاب: ٣٦)

حكـم مبتوت فيه؛ لأنـه إذا قضى وحكم فـي أمر فقد منع الـرأي فيه، وأبقى التعصـب الإيماني له، فوفـر طاقة الجدل واللجاجة إلـى أن تكون طاقة نزوع، وطاقـة تطبيق، وطاقة مراقبة.

وهناك أمور تركها هو سـبحانه وتعالى للنفس الإنسـانية التـي تتميـز بالعقـل، والعقـل الذي مظهـره الاختيـار بين البديلات، تـرك له مجالًا لينمي فيه هذه الملكة، وليكون الأمر بما تنتهي إليه هذه العقول المفكرة، فيكون الإسـلام قد جمع

بيــن الميزتين: ميزة الحزم والبت في الأمــور التي لا يريد أن يؤرجحها أو يجعلها متراخيــة، حتى لا تفوت الفائدة، وأمور تركها إذا جاءت على أي وجه من الوجوه لم يحصل فيها شيء من الضرر.

في القضية الأولى يقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾

(المؤمنون: ٧١)

وفي القضية الثانية يقول:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾

(النساء: ٨٣)

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

ولذلك كان يقال للمشــرع الثاني محمد ﷺ: أهذا أمر نزل به حكم من السماء؟ يعني إن كان قد نزل به حكم في السماء، فلا رأى لنا فيه؛ لأن السماء لها علم ليس لنا، وإن لم يكن أمر من السماء وكانت الحرب والمكيدة نشير عليك.

هذا يمثل الرأي الحازم، وهذا يمثل الرأي المســتنبط، فمن أراد دينًــا أو مذهبًــا يحقــق الأمريــن معًا يجده في الإســلام. ويمتاز الإسلام بأن الدكتاتورية فيه ليست لمساوٍ، يعنى ليس

الدكتاتور مســاويًا لك؛ لأنني أنــا وأنت جميعًا محكومون لإله واحد فوقنا، آمنا به جميعًا، وليس له هوى يُخْشى منه كما هو حال البشر.

إذن هــو يعطينــي نزعــة الدكتاتوريــة بــلا هــوى، وبــلا جبــروت الدكتاتورية، وبدون اســتعلاء الدكتاتور، وبلا إذلال الدكتاتورية.

فهكــذا يجب أن ينظر علماء الإســلام إلى قضايا الإســلام، فــلا يجعلوا الأمور التي زحزحها اللــه عن مجال الحكم الباتِّ الحازم الذي لا اختيار فيه، لا يجعلوا هذه الأمور ضمن الأمور التي ترك الله لنا فيها الحرية والاختيار.

وآفــة وجود المذاهــب أن الأمر الــذي تركه الله للمشــورة والاجتهــاد والاختيار جعلته كل طائفــة أمرًا واجب الحزم فيه والبتّ، وأن الذي يخالف رأيهم فيه يكون مخالفًا للإسلام.

نقــول لهذا: أنت لم تفهم الإســلام، أمور الإســلام يجب أن تؤخذ من زاويتيــن: أمور محكوم فيها، محزوم فيها، مبتوتة، وأمور متروكة لنا لنســتنبط ونجتهد، وإلا فلو أراد الله الدين قالب حديد لا نتحرك فيه لسهل ذلك عليه، ولكن في ذلك إهدارًا لمــا خلق الله من الاختيار بين البديلات للعقل، إذا قهرنا قهرًا على شــيء، كما قهر الحيوان والجماد على أشــياء فسميناها مســخة لا رأى لها، وتلك سِمةٌ تُنافي تكريم الله للإنسان حين جعل له اختيارًا وخلقه مختارًا.

إذن فآفــة المســلمين الذيــن يمثلــون المذاهــب ويمثلون

الطائفيــة أنهم جعلوا الأمور التـــي أباح الله فيها الرأي، وأباح فيها الاجتهاد، وأباح فيها الترجيح أمورًا مجزومًا مبتوتًا فيها، وليته كان مجزومًا مبتوتًا فيه من الله الذي فوقنا، والذي نؤمن به جميعًا، ولكنه مجزوم مبتوت فيه من جنس البشر.

ولو أراد الله هكذا ما استطعنا أن نختلف فيه.

إذن فتلــك هي الآفة التي جرأت علينــا الخصوم فقالوا: إن الإسلام لم يعد دين تجميع وإنما أصبح دين تفريق.

كان في الماضي دين تجميع كما قال الله تعالى:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ﴾

(آل عمران: ١٠٣)

إذن فالمســلمون الآن هم الذين فتحوا هــذا الباب، وفتحوا نوافذ جعلتهم يدخلون علينا منها، ليهدموا لنا قضية إيماننا.

كلامنــا الآن ليس مع أولئك الذين يتهموننا بذلك، وإنما هو مع القوم الذين فتحوا هذا المجال لهؤلاء ليدخلوا.

نقول لهم: راجعوا فهم دينكم من جديد، واعلموا أن القضايا التـــي بــت الله فيهــا وحزمها، قضايــا لو ترك فيهــا الاختيار والحرية والاجتهاد لفســدت الســماوات والأرض. وهناك أمور ترك الله لنا فيها الاختيار؛ لأننا على أي حال لن نجتمع إلا على خير. وقد ضربنا كثيرًا من الأمثال لهذه المسائل.

انظــروا إلى قول الحق جــل وعلا في قضيــة الدخول إلى

الصــلاة، والدخول إلى الصلاة يكــون بالوضوء، فآية الوضوء فيها المنهج كله.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾

(المائدة: ٦)

آه لو فطنوا إلى التعميم في الوجوه وعدم التقيد فيها، كما قيد في الأيدي بقوله:

﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾

إذن لأراحوا واستراحوا، وعلموا منهج الله كما يريده الله.

الوجوه لم يحددها الله:

﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾

وكفى. لــم يحددها لأن الوجوه لا اختــلاف عند العرب في مفهومها، ولكن الأيدي يقــع فيها الاختلاف، مرة تطلق ويراد بهــا الكــف، ومرة تطلق ويــراد بها من الأنامل إلــى المرافق، ومرة تطلــق ويراد بها إلى الكتف. وهذا إطــلاق يقال له: يد، وهذا إطلاق يقال له: يد، وهذا إطلاق يقال له: يد.

فلو أن الله -سبحانه وتعالى جلت قدرته- ترك التقييد في اليد بقوله:

﴿إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾

لكان لمجتهدٍ أن يقول: إلى هنا، والآخر أن يقول: إلى هنا. ومــاذا يكون لو تــرك الأمر فيهــا اجتهاديًّا لــكل مجتهد؟

نقــول: لا؛ لأن الله يريدها على وجه محدود، فجزم فيها جزمًا أنهى الإشكال، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئًا فيها بعد.

فحين يريد الله حكمًا باتًّا، فإنه يخرجه من الإبهام، ويأتي بالنص بحيث لا يختلف فيه أحد بعد.

ثم قال:

﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾

لم يقل: امسحوا رءوسكم، كما قال:

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾

هذا غســل صحيح، وذاك مســح، غســل نص عليه بالماء، ومسح نص عليه بالماء، والأمران فيهما اختلاف.

غســل، يعنــي لا بد أن يتقاطــر الماء، مســح، يكفي إمرار اليــد فلا يتقاطر الماء. المهم: ما هو الممســوح؟ لو كان يريد التحديد لقال: ربع رءوســكم، نصف رءوسكم، كان يحددها، ومع ذلك لم يجعلها من باب (اغســلوا وجوهكم)، ولم يجعلها من بــاب (أيديكم إلى المرافق)، ولكنه جــاء بالباء، والباء لها في اللغة إطلاقات متعددة، وتحتمل وجوهًا كثيرة.

وما دام الله قد عدل عن الأسلوب الذي قاله في:

﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾

ولــم يقل: امســحوا رءوســكم، ولــم يحدد كمــا حدد في المرافــق، فقــد جاء بالباء ليكــون إذنًا من الله فــي أن كل ما تؤديــه الباء من المعاني يمكن أن يؤخذ في إطلاقات الاجتهاد في هذا الموضوع.

ومــن هنا قال قوم: الباء للاســتعانة، ويكون المســح لكل الــرأس، وقال قوم: المســح لا يكون إلا باليد، فالممســوح هو قدر اليد، وهو الربع. وقال قوم: المراد بعض الرأس. فكلٌّ أخذ من معاني الباء ما يريد، والله يريدها للإباحة والاجتهاد، فإذا مــا ذهب مجتهد إلى أنها الكل، ومجتهــد آخر إلى أنها الربع، ومجتهد ثالث إلى أنها بعض ولو شعرة، فالكل صحيح.

والآفة أننا لم نحترم تعليل الله بوجود الباء لكل أمر مجتهَد فيــه، ولو احترمنــاه لاحْتَرَم مــن قال الكل من قــال البعض، واحترم من قــال الربع؛ لأن الباء احتملت ما قال، واحتملت ما قاله الآخر، وهي في نطاق الباء شائعة.

ولكــن الآفة أن الذي يقول بهذا يحــاول أن يجعل قوله هو الأصل، يا أخي، لو كان الله يريد من المسألة أصلًا لا نتزحزح عنه لكان - وهو صاحب التشريع - أولى بأن يحددها، ولكنه حين لم يحددها فقد احترم وجهة النظر، فإذا جاءت على أي وجه فهي مقبولــة عنده. وما دامت مقبولة عنده فليس لنا أن نُلْزِم بفعلنا نحن.

وبعض الناس يظــن أن ما وصل إليه هو الحق، وما وصل إليه غيره هو الباطل، وهذا لا يمثل وجهة نظر الإســلام. ومن هنا جاء الخلط.

ورســول الله ﷺ لم يدع المسألة في فهم نص، ولكنه جاء لنا بواقع تطبيقي ليدلنا على أن أمر المشــرع إن كان محكمًا فلا مجــال لاجتهاد أحد، وإن كان محتملًا فالمشــرع نفســه

شـــرع الاحتمال، وما دام قد شـــرع الاحتمال فقد نشأ عن هذا قضيــة أصولية: هل الحق واحد أصابــه واحد من المجتهدين وأخطأه الباقون؟

ونقــول: إن المحكم يكون الحق فيه واحدًا. أما المتشــابه فالحــق فيه متعدد، والحق هو مــا وصل إليه المجتهد، ما دام المشرع قد جاء بنص يحتمل الاجتهاد.

الرســول ﷺ جاء في مسألة غزوة الأحزاب، أو الخندق، لم يكد القوم يستريحون من غزوة الأحزاب حتى أمرهم الرسول بما أوحى الله بواســطة جبريل عليه السلام من أن الملائكة لم تخلع لباس الحرب، ولا بد أن نذهب إلى بني قريظة لتأديبهم، فقال ﷺ: «مــن كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فلا يصلِّينَّ العصر إلا في بني قُريظةَ»[15].

يجــب أن يتنبــه المجتهــدون في الإســلام، والمشــتغلون بالإسلام بوجه عام إلى مثل هذه القضايا، حتى لا تُكَفِّر طائفةٌ بفهمهــا طائفةً أخرى بفهمها، ما دام الفهمان متواردين على نص واحد يحتمل الفهم.

الصحابة رضوان الله عليهم اختلفوا في الطريق.

ففريق قال: المغرب يوشــك أن يأتي، والشــمس توشك أن تغيــب، ولم نصل العصر إلى الآن، ونحن في طريقنا إلى بني قريظة كما أمر الرسول ﷺ، فلا بد أن نصلي العصر الآن.

وفريق قال: إن رسول الله ﷺ قال: «فلا يصلين العصر إلا

---

(١٥) بنحوه في صحيح البخاري عن عمر -رضي الله عنهما- برقم: ٩٤٦.

في بني قريظة» ولم نصلْ بعد إلى بني قريظة.

قوم صلوا، وقوم لم يصلوا، ولما ذهبوا إلى المشرع ﷺ أقر هؤلاء وأقر هؤلاء.

إقراره لهـذا ولهذا كان يجب أن يكون دسـتورًا للفاهمين عند اللـه، والفقهاء الذين يسـتنبطون الأحكام مـن الله، وأن يعلموا أن الله والرسـول حين يترك نصًّا محتملًا للفهم يجب أن يحتـرم كل فريق رأي الفريق الآخـر، أو يعتبره على الأقل مسـاويًا لفهمه. أو يقـول: أنا أصبت الحـق ويحتمل الخطأ، ورأي خصمي خطأ يحتمل الصواب.

وهنا أكون قد احترمت المرجح لي في الاسـتنباط، لكنني لم أتهم سـواي حينما ذهبوا إلى رسول الله ﷺ أقر هذا وأقر هذا في أمر لم يُرد الرسـول أن يكـون محكمًا. فمن صلى لم يخالف، ومن لم يصل لم يخالف، فهما سواء مع الأمر الآخر.

وإذا أردنا أن نقعِّد هذه القاعدة لتوضيحها نقول:

الصلاة حدث، والحدث له زمان وله مكان، ولا يوجد الزمان والمـكان إلا إن وجد الحـدث، وإن وجد الحدث لا بد أن يكون لـه زمان ومكان، والصلاة حدث يطلـب منا الإيمان أن نفعله، والرسـول هنا قال قولًا حدد ماذا؟ حـدد الحدث، ثم قال: «إلا في بني قريظة». فحدد المكان، وترك الزمان.

فالذي تعصب أن يصلي قبل مغيب الشمس قال: إن الحدث لـه زمان، فاحتـرم الزمن، وقال: أنا أصليـه في زمانه في أي مكان. والذي تعصب ألا يصلي قال: «إلا في بني قريظة» فأنا

أصليه في المكان في أي زمن.

فالرسول ﷺ احترم هذا واحترم هذا؛ لأن كلًّا منهما نظر إلى طرف من طرفي الحدث.

كل الأحكام الاجتهادية التي تركها التشريع للبشر فيها إذْنٌ من الله أن كل ما وصل الاجتهاد يقبله الله، ويعتبره حقًّا.

ولكن المجتهدين أو أتباع المجتهدين أو المريدين يجعلون فهمهم هو الأصل، فكأنهم نقلوا الإحكام من المشرع إلى الإحكام في الفهم.

نقول لهم: لا. لا حق لكم في ذلك، فلو أراد الله الحكم باتًّا لبينه باتًّا

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

إذن الشيء الذي ينفذ منه خصوم الإسلام هو ما يفعله بعض علماء الإسلام، أو بعض أتباعهم، حين يرون في اجتهاداتهم التي أباح الله الاجتهاد فيها أصلًا لا يصح أن يترك، ومن هنا نشأت النكبة على المسلمين في جميع بقاع الأرض.

ولذلك نجد إسلام دولة منتقدًا من إسلام دولة أخرى؛ لأنهم أرادوا أن يجعلوا من فهمهم للأمور المجتهَد فيها نصًّا محكمًا، ومن خالفه فهو مخطئ، ولم ينظروا إلى آثار ذلك من الهجوم علينا في أن الإسلام لم يعد دين تجميع، وإنما أصبح دين تفريق.

ونحــن فــي البلــد الواحد نشــاهد ذلك الآن. ففــي كل حي طوائف لو نظرت إلى إســلام هؤلاء لوجدته بعيدًا عن إســلام هــؤلاء، لماذا؟ لأنهم جعلوا لشــيوخهم فهمًا من لم يَسِــر عليه فهو مخالف للإسلام، ألم ينظروا إلى تبعات هذه الأشياء، هذه التبعات التي سنشقى بها طويلًا من خصوم الإسلام.

التحقيق والتطبيق:

وقد ذكروا صفحات طويلة عن مصر.. وفيها: نريد أن نسأل المســلمين في مصر، وفيها الأزهر الــذي يدعي أنه الحريص على الإسلام والمحافظ عليه:

أيُّ الإســلام هــو الخيــر وهو الحــق: هل هو الإســلام في المساجد التي تديرها وزارة الأوقاف، أو الإسلام في المساجد الأهلية التي تنبَثُّ في ســائر أنحاء القُطــر، ويقوم فيها أناس يهاجمون الإسلام في المساجد الأوقافية؟

وهــم معذورون في ذلــك؛ لأن مصر فــي الحقيقة هي بلد تحقيــق الإســلام. وتحقيق الإســلام معناه: توضيــح قضاياه توضيحًا لا لبس فيه، ومصر وإن لم تكن البلد لتطبيق الإسلام، فلا يجادل أحد في أنها البلد لتحقيق الإسلام.

وهــم لا يتكلمــون عن تطبيق الإســلام؛ لأنهــم يقولون: إن جمهــرة المســلمين فــي مصــر لا تطبــق الإســلام، إذن فهم يحاكمــون مصر لا من أجــل تطبيق الإســلام، ولكن من أجل تحقيق الإسلام، فيسألون:

أي إســلام هذه المســاجد هو الحق عندكــم وعند الله، هل

هو إســلام المساجد التي يُنادى فيها بعد الأذان بالصلاة على رسول الله، أم إسلام المساجد الأخرى التي تقول: إن هذا عمل مخالف للإسلام، وتحمل عليه حملة عنيفة؟!

ونقــول: هم محقون في هذا؛ لأن كثيــرًا من الذين يؤذنون يجهلــون الموقف الحــق للدين من هذه المســألة، ويعتبرون المسألة أدبًا مع رسول الله ﷺ، والدين ليس أدبًا فقط، وإنما هو في الأصل طاعة، والطاعة هي الأدب.

يجب أن نطيع رســول الله ﷺ فيما شــرع رسول الله. ولا تتجمل أنت على رسول الله بما لم يشرعه رسول الله. فالأذان أقره رسول الله ﷺ بهذه الصيغة، وبلا صلاة عليه في آخره. صحيح أنه قال: « إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَــيَّ»[١٦]. فالذين التزمــوا الأدب قبل الطاعة جعلوا المــؤذن مع المصلين عليه، وهذا لا شــك فيــه، المؤذن يصلي عليــه بعد الأذان، ولكن ليس بلهجة الأذان الجاهرة، بل يصلي عليه في سره حتى لا يدخل على الأذان ما ليس منه؛ لأن الدين دين طاعة وأدب، وليس دين أدب فقط.

حين يأخذون علينا هذا يجب أن نحمد لهم أنهم نبهونا إلى شــيء لم يكن وجوده ضرورة في الدين، ولكن وجوده أدخل التشــكك في نفوس غيــر المتدينين ليدخلوا منــه على الدين، فقالوا:

أي الإســلام خير؟ هذا يقول: ذاك باطــل، وذاك يقول: هذا

---

(١٦) رواه مسلم من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رضي الله عنهما- برقم: ١١.

باطل، وهكذا إذن فما أحرانا أن نتجنب هذه الأشياء.

نحن نحب رســول الله، ونعظمه، ونبجله، ونوقره، ونزداد منزلــة عند اللــه عندما نصلي عليــه، ولكن لكل مقــام مقاله التشــريعي، فمــا دام ذلك لم يــرد فــي الأذان فليصل المؤذن والســامع في ســره على رســول الله ﷺ. وبذلك نقطع على مريــدي الكيد للإســلام منفذًا يدخلون منه على الإســلام، مما يُغضب عنا رسول الله ﷺ.

هناك أشــياء كثيرة يكون الأدب فيها شــيئًا، والطاعة شيئًا آخر.

وكذلــك يقولون: قولوا لنا: أتقولون أيها المســلمون: اللهم صــل على محمــد، أم اللهم صل على ســيدنا محمد؟ ونقول: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أم أشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله؟

ونقول: أما الشهادتان فرســول الله ﷺ قال: «وصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[(١٧)]. وحين كان يصلي كان يقول في تشهده: وأشهد أن محمدًا رسول الله، فإن أردنا الطاعة فلنفعل هذا.

ولكــن النــاس ينفعلــون عنــد ذكر رســول اللــه بالحب، فيســتنكفون أن يذكروا اســم رســول الله دون أن يقدموا له بسيدنا، وهم مشكورون على هذا، ولكن الأدب شيء والطاعة شيء آخر.

الطاعة، قال رسول الله ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

---

(١٧) رواه البخاري عن مالك بن الحويرث، برقم: ٦٣١، ٦٠٠٨، ٧٢٤٦.

ولكــن الذين وقفوا ضد هذه المســألة ليخطئوا من يحذف الســيادة حاولوا أن يحتجوا لذلك، وما كان أغناهم أن يحتجوا بأن رســول الله ﷺ لم يقل: وأشــهد أن سيدنا محمدًا رسول الله في التشــهد؛ لأنه لا يقول عن نفســه هذا، ما كان أغناهم عن أن يلتمسوا دليلًا؛ لأننا نصلي كما صلى، وهو مطلوب منه أن يصلي على نفســه، ولم يقل: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، فنحن نصلي مثله. إذن ليس في ذلك قدح.

أرأيت لو أنك قرأت القرآن كله في ركوعك، ولم تقل سبحان ربــي العظيــم، أكنت قد أديــت الصلاة كما يريدهــا الله؟ ولو قرأت القرآن مكان التشــهد ما نفعك. فالطاعة شــيء، والأدب شيء آخر.

وما يدرينا أن الله تعالى يأتينا بأشياء قد يتطلب الأدب فيها وصفًــا، ولكنه يريد بأمره أن يخرجنا عن هذا الأدب، العبودية التزام، لا عبودية أدب فقط.

إذن ما أغنانا عن الدخول في هذه المتاهات.

وعلى الذين يأتون بعد الأذان ويعلنونها صلاة أن يصلوا في نفوســهم ســرًّا، وما على الذين يؤدون التحيات إلا أن يؤدوها كما أداها رسول الله ﷺ.

القبور في المساجد

ومما قالوه أيضًا: إن كثيرًا من المسلمين يُكفِّرون من يصلي في مسجد أُلحق بقبر من القبور، وهذا واقع، وله آثاره.

ولذلك كان يجب أن نجلس لنفهم هذه المسألة، فالمانعون يتخذون من قول رسول الله ﷺ: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[18] دليلًا لهم، وهذا هو دليلهم.

نقول: القبر عندنا لم يتخذ مسجدًا، فالقبر هو المكان الذي دُفن فيه الميت، هو مضجع الميت، فهل اتخذ المسلمون القبر مسجدًا؟ أبدًا، لم يتخذوه مسجدًا، وإنما جعلوا القبر قبرًا أُلحق به مسجد، وحَوْلَ القبر شيء اسمه «المقصورة».

وكلمة مقصورة معناها شيء محبوس على القبرية لا يتعداها إلى شيء آخر، وربما جعلوا سياجات: سياجًا من خشب، وسياجًا من حديد، لئلا يتخذه أحد مسجدًا.

ثم نقول: هل اشترط أحد أن نصلي في مساجد فيها قبور؟ لم يشترط أحد ذلك، فما أغنانا عن أن نجعل نفس القبر أو المقام مسجدًا، ما دام الشرع لم يأمر به، وبعد ذلك ندخل في عراك مع الغير.

لماذا لا نغلق هذه المسألة؟ الذي يريد أن يحمي الإسلام لا يجعل فيه ثغرة للغير يدخل منها إليه بالنقد، ذلك ما يمكن أن نقوله للمجيز وللمعارض، نتكلم مع هذا ومع ذاك.

إذا أقنعتهم بأنهم لا يتخذون القبر مسجدًا يقولون لك:

---

(١٨) أخرجه البخاري عن عائشة برقم: ٤٤٤١.

إنهــم يصلون في القبر، نقول: يا ســيدي، مرة يجعلون القبر وراءهم، ومرة يجعلونه أمامهم، والأمامية غير ملحوظة، ومرة يجعلونه عن أيمانهم، ومرة عن شمائلهم.

ولكم في مســجد رسول الله أســوة، فهناك من يصلي في الروضة، ويكون قبر الرســول وأبي بكر وعمر على اليســار، ويصلون في منزل الوحي ويكون القبر على اليمين، ويصلون فــي الصُّفَّــة ويكون القبــر أمامهم، ويصلون فــي المواجهة، والقبــر خلفهم، ومضى على ذلك علماء المســلمين دون ذكر منهم.

يقولون: إنه مســجد رسول الله، ونقول لهم: وفيه أبو بكر وعمر.

كان يجب أن ننهي هذه المسألة بيننا؛ لأن أثرها ليس فيما بيننا.

فِرْية تضارب الرسول مع القرآن

ويقول بعضهـم لبعض عن المسـلمين: جادلوهم بمنطق القـرآن، ومنطـق الحديث، مما يدل علـى أن المخططين لهذا الأمر قرءوا القرآن جيدًا، وقرءوه بفهم، وقرءوا الحديث جيدًا، وقرءوه بفهم، إلا أنهم لم يقرءوه بنور، وهناك فرق بين الفهم والنـور، الفهـم: أن يأخذ القضيـة ويجد لها مبررًا سـطحيًّا، ولذلـك قالوا: القرآن فيه تناقض، بينمـا هو ظاهره التناقض فقط، لأن القرآن من لدن حكيم، وكل شـيء فيه له حكمة وله معنى.

القـرآن يلح علينا فـي أن نتدبر، ومعنـى التدبر: ألا ننظر إلى واجهة معطيات الأشـياء فقط، ولكـن ننظر إلى خلفيات المعطيات من دبر الأشياء.

المؤمـن ينظر إلى الأمـام والخلف، والمخالـف ينظر إلى الأمام فقط، إلى المواجهة، فـإن كان الظاهر التعارض، قال: إنه متعارض، ولا يتدبر.

قالوا: الرسـول الذي جاء القرآن على لسانه، وقال: إنه من عند الله هو أول من تضارب مع القرآن، إذ كيف يقول القرآن:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾

(الحشر: ٧)

ثـم يأتي فيقول: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْـرِ دُنْيَاكُمْ»[١٩] ومعنى أنتم

---

(١٩) رواه مسلم عن أنس برقم: ١٤١، ٢٣٦٣.

أعلم بشئون دنياكم كما يقولون: أن

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

نص غير فعال على رأيهم.

ونقول: الذي قال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» أليس هو رسول الله؟ بلى هو رسول الله، أليس الذي قال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

هـو الله؟ بلى هو الله، هل قُبض محمد ﷺ قبل أن يقول الثانية؟ إذن هو بلّغ هذه وقال هذه، إذن لا بد أن تكون الجهة منفكة.

الله قال:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾

وفي النهاية أتانا الرسـول فقال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» إذن هنـاك وجهـان للمسـألة وإنما يأتي التضـارب إذا كانت المسألة منصبة على شيء واحد.

الإسـلام جـاء بقوانين، هناك أمـور تختلف فيهـا الأهواء، فتدَخَّل فيها، حتى لا يختلف الناس فيها، وهناك قوانين علمية خاضعـة للتجربة، ولا دخـل للهوى فيها؛ لأننـا لا نرى عالمًا من العلمـاء يدخل معملًا ليتفاعل مـع العناصر بهوى عنده، لـو دخل بهوى لا ينتج بل هو يدخـل بغير هوى، وما تعطيه المادة الصماء يكون هو القانون، وهذا لا يقنن له الإسلام.

إذن هناك أمور مادية كونية تجريبية، وأمور تخضع للهوى، وإذا نظرنـا إلـى العالـم المعاصـر وجدنا هاتيـن الموجتين

تحكمــان حركة الحيــاة فيه: حركة خاضعــة للهوى، وحركة خاضعة للعلم والتجربة، وسنجد التجربة حَكَمَت الجميع فلم يشــذّ عنها واحد، وسنجد الهوى فرّق الجميع فلا يجتمع عليه اثنان.

فالرســول ﷺ حين يقول ذلك إنما يضع قاعدة كلية عامة تســير جنبًــا إلى جنب مع منهــج الله الســماوي، فمنهج الله الســماوي أن الله خلق الكون بنواميســه وعناصره وأجناسه وقوانينه، وهــذه الأمور تخضع للتجربة المعملية، ســواء قام بهــا مؤمن أو كافر، فهي تعطي ثمرتهــا للمؤمن والكافر معًا كما أن الله -سبحانه- يعطي العطاء ويؤتي خير الأرض لمن آمن به ومن كفر به على السواء.

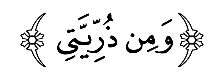
وفــي هذه القضيــة يجب أن نفــرق بين إمامة المســلمين حين يضعها اللــه فيمن يؤتمن عليها، وبين رزق أهل الأرض، فإبراهيم عليه السلام حين ابتلاه الله بكلمات، أي مطلوبات، فأتمهن أي أدَّاهن على أكمل ما يكون الأداء، قال الله له:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

(البقرة: ١٢٤)

لأنــك اؤتمنت على مطلوبــات الله فأديتهــا على خير وجه فأنت أهل لأن تُؤْتمَنَ على الإمامة.

قال إبراهيم:



(البقرة: ١٢٤)

فقال الله تعالى:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة: ١٢٤)

فــكأن الإمامة عهد من الله للمأمون عليها، وتلك مســألة لا تخضع للجنس ولا للدم، ولا لنسب اللحم، لقد قال الله:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

وإن كانوا من أبنائك، وهذه قضية أخذها إبراهيم من ربه.

ولذلــك حينما ذهــب إلى الــوادي غير ذي الــزرع دعا الله بموجــب الحنــان لابنه وزوجتــه أن يرزق هؤلاء مــن الثمرات فقال:

﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾

(إبراهيم: ٣٧)

مــن آمــن ومن كفر - أرزقــه أيضًا؛ لأنك خلطــت بين عهد الإمامة الإيمانية وبين الرزق.

فحين قلت:

﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

سجلت الأمر على الرزق فقلت: «من آمن» فقال الله:

﴿وَمَن كَفَرَ﴾

إذن فمسألة الرزق بنواميسه يستوي فيها المؤمن والكافر، ولذلك كانت كل التجارب فيــه لا تخضع لقضية الإيمان، لكن تخضع لقضية الحركة فــي الأرض، فمن تحرك أوتي خيرها،

وإن كان كافرًا.

إذن فرسـول اللـه ﷺ حيـن نهاهـم عن تأبيـر النخل أي تلقيحه، أخذها من قضية أن الله –سـبحانه- يخلق ما يشاء، وأنهم لـو لم يلقحوه لصلح النخل، ولكن المسـألة التجريبية خذلـت هذه الفكرة فجاءت التجربة بأن النخل شـاص، فماذا يكون موقفه؟

موقفـه أن يـرد المسـألة إلـى الربوبية وقضية الأسـباب، وإعطاء التجربة حقها، وتجعل التجربة على لسـان المشـرع ﷺ، وهو الـذي يعطي التجربة، ويعطيها المعنى، فالسـماء لا دخـل لها فيها، لأنها آتت أسـباب الـرزق، وأنتم تجتهدون، فقال: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ».

فرسـول الله هو الـذي منع التأبير، وهو الذي قـال: «أَنْتُمْ أَعْلَـمُ بِأَمْـرِ دُنْيَاكُمْ».. فيجب أن نأخذ قضيـة «أنتم أعلم» من القضية المنهي عنها وهي قضية التأبير، وهي قضية تجريبية معملية.

إذن فالرسول يجعلها في نفسه وفاقًا للمشرع العالم حين يضـع قضية فيجعلها مطبقة على نفسـه أولًا، فلم يمنعه أي اعتبـار من أن يؤصل هذه القضية لتكون دسـتورًا للعالم كله في كل أمر تجريبي ومعملي.

والقضايـا التي يجد الحق فيها غضاضة على النفوس كان يأتي بها على حكم الرسـول في نفسـه وفي شخصه، ولذلك قلنـا: إن النبيﷺ تحمل مسـألة إبطال التبني في شـخصه،

فكان التبني معروفًا عند العرب، فجاء الإسلام ليبطله؛ لأن المسألة في التبني تتعدى جميع الآثار إلى قضية البنوة، فإذا جعلت الولد ابنًا لك، ولك ابنة، أيصح أن يراها ويعاشرها؟ فالمسألة حينئذ تتعدى مسألة الحنان إلى مسائل أخرى.

فالإسلام حين أراد أن يبطل التبني، وهو شائع في العرب، كانت التجربة في الرسول نفسه ﷺ، مع أن هذه التجربة قد جرّت علينا متاعب كثيرة، حتى قالوا: لقد تزوج الرسول زوجة ابنه، ولكن قضية زواجه هي نفسها قضية زيد، قال الله له: تزوجها لتثبت لهم بطلان التبني، ورسول الله دائمًا هو موضع الأسوة الراقية. المسلمون فقراء فعاش فقيرًا مثلهم، هم يلبسون ملابس متعددة وهو يلبس لباسًا خشنًا، إذا تكلم معه أحد لا يذهب حتى يذهب هو، وإذا أخذ أحد بيده لم يسحب يده حتى يسحبها هو.

وكذلك هو في قضية تأبير النخل، فكأنه يقول: أنا أتدخل في أموركم التي تخضع للهوى، هنا تتدخل السماء لتعصمكم من اختلاف الأهواء، ولكن المسائل المحكومة بقوانين صماء جامدة فهي تعطي نتيجة واحدة ولا تختلف باختلاف الهوى معها.

العالم الآن تسوده موجتان: الأولى موجة نظرية، أي فيها الهوى، والثانية موجة معملية، والحضارات التي نعيشها الآن حضارات معملية، مبنية على التجربة التي اكتشفت كثيرًا من أسرار الله في الخلق، فاستفدنا بها، وأثرت فينا.

ونحــن نعجب لأن الأمــور الأهوائيــة النظريــة يحاول كل صاحــب نظرية أن يمنع النظرية المقابلة من أن تتســلل إليه، فيضع العوائق والســدود أمامها، أما الأمور المعملية فيحاول أن يتلصص عليها ويسرقها، ليستفيد منها.

إذن فالأمور المعملية لا هوى فيها، بل الأمور فيها خاضعة للتجربة، والتجربة لا تجامل، فالله -ســبحانه وتعالى- أنطق رســوله بأن يقول: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ» أي هذه المســائل التجريبية ما دمتم جربتموها، فأنتم أعلم بشئونها.

ظلم العلماء

ومن الأشـياء التـي عابوها علـى ديننا: أن العلمـاء الذين ابتكروا الأشياء النافعة والمفيدة وبخاصة في مجال الأمراض التـي تفتك بالبشـر، فـكان مـا ابتكـروه نهاية لتلـك الآلام، والعلماء الذين أفنوا حياتهم في ابتكار أشياء تُرَفِّهُ عن الناس وتسـعدهم، وتوفر عليهم جهدهم، لأنها تعطيهم الثمرة بأقل مجهود وفي أقل زمن، قالوا: الإسلام يقول: إن الله لا يجازيهم، وليس لهم عند الله نصيب.

يريدون أن يحمِّسـوا الناس ضد الإسـلام الذي يقول هذا، لأنك إذا عُولِجْتَ من مرض بدواء ابتكره عالم غير مسلم قلت: وهل الإسـلام يَحْرِم هـذا العالم من الجزاء؟ فكأن الإسـلام لا يعدل في الجزاء.

وهـؤلاء نقول لهـم: ما حظ الإنسـان من حركتـه؟ مطلق الإنسان، لماذا يتحرك في الحياة؟ يتحرك الإنسان لغاية أُولى هي نفع نفسـه اقتياتًا لإبقـاء حياته، وكذلك مـن يعوله فإذا ما فعلت لإنسـان شيئًا ففعلك هذا أساسًـا لتأخذ أجرًا، لتأخذ القـوت وتقتات، والـذي فعلتَ له ما مقصـده؟ مقصده أنه لا يقدر على الحركة، فجاء بك لتتحرك له هذه الحركة، وبالتالي لا بد أن تكون حركتك هذه نافعة له.

إذن فحركتك إما أن تكون نافعة لك، أو نافعة لغيرك، لماذا أعطاك غيرك الأجر؟ لأنك فعلت له. فعلت له أو لنفسك؟ فعلت

لنفسك أولا، ولماذا أعطاك الأجر؟ أعطاك الأجر من أجل نفسه هو.

إذن فقضيــة الأجــر على العمــل إما أن تكــون عند الفاعل المباشر، أو تكون عند المفعول له.

أيعمل لك واحد عملًا، ثم يطالب غيرك بالأجر؟ الأجر يدفعه من عملت له، وهذا الكافر أكان الله في باله ساعة ابتكر؟ أكان الله في باله ســاعة أتعب نفســه في معملــه؟ لا، إنما كان في باله جاهه وشــرفه بالعلم وشــهرته والمــال، إذن لم يكن الله في باله.

إذن فالذي عمل من أجله أعطاه الأجر، تقديرًا وتكريمًا ومالًا وشــهرة وشــهادات فإذا ما جاء اللهَ يوم الجزاء أيعطيه أجرًا وهــو لم يكن فــي باله؟ هذا هو الفارق بيــن المؤمن والكافر، حتى في العمل الذي يقوت به الإنســان نفســه: الكافر يعمل لذاتــه، والمؤمن يعمــل لأن الله أمره أن يتحرك حركة تَسَــعُه وتَسَعُ غير القادر على الحركة.

فالله في باله ما دام يتحرك حركة فوق حاجته، لأنه يقضي حاجته ويرد الباقي على غير القادر فالله يعطيه الجزاء.

والحق يصور لنا هذه الصورة تصويرًا واضحًا فيقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩)

ويقول:

﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾

(الكهف: ١٠٣، ١٠٤)

ويقول:

﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾

(الفرقان: ٢٣)

فماذا تنتظر؟ أن يعطي الله لمن لم يكن الله في باله ساعة فعل، هذه عدالة؟ اجتهد فأعطـاه الله النتيجة، أخذ حظه من الدنيا، ولذلك يقول الرسول ﷺ: « فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ»[٢٠].

إذن، إذا حدثنـا بـأن الذين كفروا بربهم أعمالهم كسـراب بقيعة فليسـت هذه نظرة الإسـلام فقط، بل هي نظرة الأديان جميعًا.

فإذا جاءت آية:

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾

(الكهف: ٣٠)

فأجـره أن الناس تقـدّره، وتصنع له التماثيـل، ويعطونه الجاه، ويعود عليه عمله بالمال الوفير في الدنيا، إنما عند الله فلا شيء له.

---

(٢٠) رواه مسلم من حديث أبي هريرة برقم: ١٥٢.

الإسلام والتخلف الحضاري

ومن الأشــياء التي يذيعونهــا، ويؤثرون بها على الشــباب المســلم أنهم يقولون: إن إســلامهم أوقفهم في الأرض موقف التخلـف، وجعلهم في الأرض في منزلة الأتباع دائمًا يعني أن العالم الإسلامي كله فقير متخلف.

ونحن لا ننكر هذه القضية، ولكن حتى لا نبثها في نفوس شــبابنا فيقفوا ضد الدين نقول لهم: أو ذلك الأمر الذي عرض للمسلمين في هذا العصر، كان أمرًا لازمًا لهم في كل العصور كمسلمين؟

الجواب منهم: لا؛ لأنهم كانوا يسمون عصورهم في أوروبا بالعصور المظلمة في القرون الوســطى، ونحن كنا في غاية الارتقاء، فالرشــيد أرسل إلى شرلمان ساعة دقاقة تدق بالماء فلما وصلت إلى فرنسا قالوا: إن فيها شيطانًا.

وإذا مــا أردنا أن نعرف مدى ارتقاء المســلمين بالإســلام فعلينا أن ننسب كل علم موجود الآن إلى أصله، لنجد أن بذرته والــرواد الأوائل فيه من علماء المســلمين، وهم كانوا القنطرة التي عبر عليها الأوروبيون إلي حضارتهم وهذا باعترافهم.

ولذلك نجد الآن في مكتبة الكونجرس أن الرســم المعملي للأرض هــو صورة عربي أمــام إنبيقه[٢١]، مما يــدل على أن المسلمين هم بذرة كل حضارة.

إذن فالتخلف ليس من طبيعة الإسلام وإنما هو أمر طارئ

---

(٢١) إنبيق: جهاز يستعمل لتقطير السوائل والزيوت. (المجلة).

علــى تحضرنا، وهذا هو إقرارهم بأنفســهم كما يقرون بأنهم أخذوا عنا كل شيء يدخل في تكوين حضارتهم.

إذن فالإســلام جاء منذ أربعة عشــر قرنًا وأول من تأثر به أمة أمية متبدية، وبعد ذلك قادت به أممًا متحضرة كبرى هي: الروم والفرس، وحكموهم بالنظام الإنســاني الراقي، جماعة أمية جاءوا بالقوانين، وطبقوها على الأمم على اختلافها.

ويشــاء الله أن يجعــل هذا الانتصار علــى جناحين: جناح شرقي في فارس، وجناح غربي في الروم، وهما أكبر دولتين متحضرتيــن في العالم آنذاك، وحينما رأوا ما جاء به الإســلام مــن نظام يحكم قضية الحياة، ويدير سياســة الدنيا، تهافتوا على الإسلام، وعلى هذه الحضارة، ولذلك ذهب الإسلام بقوتين: قوة اندفاع المعتنقين، وقوة الجذب للمطالبين هذا دفع، وهذا جذب، وهذا هو الرد على العجب من انتصار الإســلام على يد أمه متبدية لا حظ لها من التقدم ولا الحضارة، حدث ذلك لأن القوتين كانتا تعملان في قوة، المســلمون يندفعون لينشــروا دينهــم، والعالم المتحضر يئن مــن آلام الحضارة، فحين رأي ذلــك النــور انجذب إليــه، فأصبحت هنــاك قوة تدفــع، وقوة تجذب، وهما قوتان كفيلتان بنشر الدين في أرجاء العالم.

وإذا نظرنــا إلى القضية نظرة ذاتية إيمانية يجب أن ننظر إلــى المســلمين أنفســهم في هــذا الموضع لنعــرف أن واقع المسلمين كمســلمين خذل قضية الإسلام كإسلام، لأن الأعداء جعلوا من حال المســلمين حكمًا على الإسلام، ومنطقة العزل

يجب أن تعزل بين الإســلام كدين، وبين من يدعي أنه نســب إلى الإسلام فهو مسلم.

أيّ ديــن إذا اتبعه تابع له فقد يحكم علــى هذا التابع بأنه طائــع، وقد يحكم عليه بأنه عاصٍ، فــلا تأخذوا من تصرفات العصــاة حكمًــا على الإســلام، ولذلــك فالذين يأخــذون هذه التصرفات يقولون صادقين: إننا أمم متخلفة. ولكن الحق أن هناك مسلمين متخلفين، وليس هناك إسلام متخلف.

لو نظرنا على التحقيق لوجدنا أنهم تخلفوا لأنهم لم يكونوا مسلمين، إذن فالتخلف ليس لكونهم مسلمين.

وقالوا: إن الدين مطلق دين هو سبب التخلف، والمستغربون من أبنائنا قلدوهم وقالوا: إن الدين سبب التخلف.

وهذا خطأ.. حتى المسيحية لا تدعو إلى التخلف، المسيحية قامت بالشــحنة الروحية في مواجهة المادة البحتة اليهودية. لم تقل: إني أتعرض لقضايا الحياة، ولم تقل: إني أضع نظامًا للحياة.

فلمــا جاء الإســلام ووجد التعــارض بين الماديــة القديمة والروحيــة الحديثــة كان لا بد أن يجمع بيــن الأمرين في دين واحد هو الإســلام، وفي كتاب واحد هو القــرآن، يعصمنا من الهوى والأمور الأخرى التي تضر بمسيرة العلم والحياة.

والدليــل على ذلك وجود علماء معمليــن فهموا دينهم في تاريخ الإســلام، وفهموا لفتة الدين إلى العلــم التجريبي، تلك اللفتة التي سبقت الدنيا في قوله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴾

(يوسف: ١٠٥)

وهذا ينص على إعراض الإنسان عن الآيات، فكأنه بالمفهوم يقــول: أي آيــة لا تعــرض عنهــا، لأن أي آيــة تضعها موضع التجربة والمشاهدة الدقيقة يمكنك أن تفيد منها فائدة عظمى تعينك على التقدم في الحياة ولهذا هو أصل العلم التجريبي.

عصر البخار نشأ من ملاحظة بسيطة لاحظها أحد العلماء، أخذ فكرته مــن قِدْر تغلي، وتحتها النــار، فوجد غطاء القدر يرتفــع، لأن بداخلها بخارًا كثيرًا، وقد تحول البخار إلى طاقة تدفع، ومن هنا نشأ عصر البخار.

والغواصات والطرادات كأنهــا الأعلام كما وصفها القرآن، وحمولتها آلاف الأطنان، نشأت بملاحظة بسيطة لاحظها عالم حينما نزل الحمــام، فوجد أن الماء قد ارتفع في الحمام، لأنه أزاح قــدرًا من الماء حين نزل يســاوي حجمــه لا وزنه فوجد أن هنــاك علاقة بين الحجم والوزن، أتــى بقطعة من المعدن ووضعها في الماء فغطســت، وحينما فرغهــا طفت، أخذ من هذا أن الغاطس على قدر الحمولة.

لــكل هذا كان العلماء المســلمون حين يبحثــون في العلم التجريبــي يقولــون: نحن نبحث عن أســرار الله فــي الكون فالإســلام يدعو إلــى هذا، ولكن هل حال المســلم المنســوب للإسلام يضر بالإسلام؟ إذا رأيتم من يشرب الخمر فهل يضر

هذا بالإسلام؟ لا، الإســلام يحرم شرب الخمر، ولكننا نحن لم نُقِم عليه الحد.

ولذلك فالرســول ﷺ ينبهنا إلى خطر الإهمال في الالتزام ولو كان الإهمال يســيرًا؛ لأن هذا التهاون سيكون فجوة يدخل منها أعداء الإسلام إلى الإسلام، «وكل واحد من المسلمين على ثغرة من ثغور الإسلام، فليحذر الواحد منهم أن يؤتى الإسلام من ثغرته»(٢٢).

وكل مســلم يســاوي حصنًا، فليحذر أن يؤتي الإســلام من حصنه، وأعداء الإســلام نظروا إلى المسلمين، فوجدوا ثغرات، فدخلوا على الإسلام من هذه الثغرات.

والســلوك المنهجي هو خيــر دعوة إلى الإســلام، قال الله تعالى:

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

(فصلت: ٣٣)

قــال: لمن؟ قال: لمن يرونه على الســلوك الســمح الطيب، لفتهم من ذاته إلى دينه وقال: خذ الدين من الســلوك الملتزم، ها أنذا من المسلمين فانظروا إلى سلوكي.

ولهــذا انتشــر الإســلام بواســطة التجــار الملتزمين، من معاملاتهم على أســاس أدب وورع الإسلام، قل لهم: أنا هكذا

---

(٢٢) رواه المروزي في السنة عن يزيد بن مرثد، برقم: ٢٨، ٢٩.

لأنني مسلم.

ولذلــك فكثير مــن المفكريــن هداهــم إلى الإســلام أمور تمــر بدون انتباه، فالرســول كان أصحابــه يخافون عليه من خصومه، فكانوا يحرســونه، يفدونه بأنفسهم، هذا هو معنى الحراسة وذلك لأن بقاء صاحب الفكرة خير من بقاء حُرّاسه.

الصدِّيــق فــي الغار عرّض نفســه للخطر؛ لأن الرســول لا يُعــوَّض، أما هــو فيعوض هذه شــهادة بأن بقــاءه خير من بقائهم.

وفي يوم من الأيام فوجئوا بأن الرســول قال لهم: انصرفوا عنّي؛ لأن الله قال لي:

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾

(المائدة: ٦٧)

أســلمت امرأة لهذا الســبب، قالت: إن الإنسان يغش الدنيا كلها، ولكنه لا يغش نفسه، ولهذا فمحمد ينقل فعلًا عن الله.

والرجــل الذي كتب كتــاب «العظماء مئــة» جعل أعظمهم وأولهــم محمدًا ﷺ، وقال: هذا الرجــل أعظم رجل في العالم لأنه ما زال يحكم ملايين المسلمين وهو في قبره.

المهمة التي يجب أن يعرفها كل مسلم أنه ساعة يفعل شيئًا مخالفًا لمنهج الله فلينظر كم صد من الناس، وكم أثار الشــك فــي الدين فــي صدور ناس، ومن هنا حــذر النبي ﷺ من أن يؤتى الدين من ثغرته، واذكروا جيدًا قول الرجل الذي أســلم: الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام قبل أن أعرف المسلمين.

شبهة تناقض القرآن

شيء آخر يأخذه خصوم الإسلام، ليخدعوا به السذج، وقبل أن نعرض لذلك الشـــيء نقول: إنه يجب على ولي الأمر حاكمًا كان أو أبًا أو معلمًا أن يُبَصِّر من تحت يده من الأبناء والنساء بأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها؛ لأن هذه سنة القرآن.

فالقرآن عرض علينا أباطيل خصوم الدين، ورد عليها؛ لأنه لــو ترك القضايا تفِد علينا من غيــره لدخلت علينا بغير دليل علــى بطلانها، إذن لا بد من عــرض هذه القضايا ومعها دليل البطلان، لئلا تنفرد القضايا بالقلب.

حينما يفد علينا مرض، ونريد أن نتحصن منه فإننا نذهب إلى المرض نفســه، ونأخذ الميكروب في صورة غير شرسة، ونعطيــه للنــاس في صورة حقــن، وأولياء الأمــور من علماء ومدرســين وآباء عليهم أن يعرضوا هذه القضايا من جهتهم، ولا يدعوها تفد إليهم مــن ورائنا؛ لأننا إن هوجمنا من الخلف هوجمنا بشراسة.

وكثيــر مــن النــاس يســتنكفون أن يذكروا هــذه القضايا لأبنائهــم، لئلا يلفتــوا أنظارهم إليها، وهذا خطأ؛ لأن وســائل الإعلام شــتى، فإن حاولت ألا تفد هــذه الوافدات عن طريقك، فإنك لا تستطيع أن تمنعها من الوصول من غيرك وعن طريق وسائل الإعلام.

وخصوم الإسلام يقولون: إن القرآن الذي يرفعه المسلمون إلــى مرتبة التقديس ليس من عند الإلــه؛ لأن الإله لا يمكن أن

يتضــارب، وهذا القــرآن متضارب في كثير مــن آياته، وعدوا عشــر آيات ظاهرها التضارب وعنونوها: «ســفر البرهان في متناقضات القرآن» وعرضوها بغير سليقة العربي ذي الملكة الذي يفهم الأسلوب ويدرك مراميه.

عرضوا قول الحق سبحانه ليشككوا في القرآن ذاته:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

(الأنعام: ١٦٤)

وقالوا: تلك قضية قرآنية، وقالوا: ثم يســهو محمد أنه قال هــذه الآية، فينطلق لســانه بآية أخرى تناقض هــذه الآية هو قوله:

﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

(النحل: ٢٥)

فكيــف لا تــزر وازرة وزر أخــرى، ثــم يحملــوا أوزارًا مع أوزارهــم؟ هم معذورون؛ لأنهم لم يتمرســوا بفهم الأســلوب العربــي، أو هم فاهمــون، ولكنهم يحاولــون أن يدخلوا على النــاس بهذا، لأنهم ســيخاطبون ناشــئة، هذه الناشــئة ليس عندها بصر بأسلوب اللغة.

فنقــول لهــم: لا تضــارب، لأن الدين الإســلامي دين ذاتي، بمعنى أن الإنســان لا يعاقب إلا على فِعْلٍ فَعَلَه باختياره غير مُكْــره عليــه في زمــن يكون التكليــف فيه موجــودًا، ومعنى التكليف هــو البلوغ والعقل إلى آخر الشــروط الموضحة في

مواضعها من الشـريعة، مما يدل على احتياطات الإسـلام في مسألة الجزاء.

فهـو لـم يكلـف إلا من نضـج عقلـه، وآية نضـج العقل: اسـتكمال البنية الإنسـانية بالبلوغ؛ لأنه لو كلف قبل ذلك ثم طـرأ عليه البلوغ، والبلوغ ظاهرة جنسـية عارمـة، ربما قال: هذه لم تكن عندي ساعة تعاقدت على الإيمان، أنا الآن أجد في جسمي أشياء أخرى.

والنضج في كل شـيء حـي هو أن يقـدر بذاتيته على أن ينجب مثله، ولذلك فمن رحمة الله بنا من أجل بقاء الأنواع أن الثمار كلها في أصل تكوينها إنما تكون من أجل حماية البذرة التي في داخلها، ولا تنضج الثمرة وتكون حلوة إلا إذا نضجت البذرة فيها.

فأنت إذا شـققت بطيخة ووجدت اللب أبيض، فهي ليست حلـوة، أما إذا وجدته أسـود لامعًا فهي حلـوة، وقطْفُ العنب إن كانت بذرته ناضجة فهو حلو، وإلا فلا، وكذلك الإنسـان لا ينضج إلا إذا كانت عنده القدرة الذاتية على الإنجاب، وهذا هو التكليف.

فإذا أكرهته على الفعل رُفع عنه التكليف، وهذا هو الضمان لعدالة الجزاء ويشـترط أن تكـون أداة الاختيار بين البديلات -وهي العقل- سليمة.

وهـذا التحـري الدقيق للعدالـة معناه أننـي لا أحمل وزر سـواي، لكن الوزر الذي يفعله الشـخص قـد يظهر أثره في

غيــره فالذي يضل بذاته مــن غير أن يتعدى ضلاله إلى الغير، ولكن حين يريد أن ينقل ضلاله إلى الغير فإن له عملين حينئــذ: أنه ضل في ذاتــه، وأنه أضل غيره، فحين يضل غيره فهذا عمل جديد وهو حينئذ يحمل وزر ضلاله في ذاته، ووزر إضلالــه لغيره، وهذا وزر مع وزره، هو أنه ضلل الغير فهناك فرق بين وزر الضلال، ووزر الإضلال، وهم لا يفهمون ذلك.

ألم يروا أن الرســول ﷺ قال: «مَنْ سَــنَّ فِي الْإِسْــلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَــا وَوِزْرُ مَــنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْــرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[٢٣].

لأنها ما دامت سنة فقد أصبحت أسوة، ولذلك شرع الإسلام ســتر بعــض الجرائم، لأن إشــاعتها تعطي أســوة في الشــر فيســترها ويأمــر بعدم التنقيب عن عيــوب الناس؛ لئلا توجد الأسوة في الشر، فإن وجدت أسوة في الشر فالذي صنعها هو الذي كشف عنها وأشاعها.

إذن فالمســألة الأولــى مــن كتــاب: «ســفر البرهــان فــي متناقضات القرآن» منقوضة.

وبعد ذلك يعرضون قضية العقوق الأبوي، قالوا: إن القرآن يحض الناس على أن يعاملوا آباءهم معاملة ســيئة وقاســية وعرضوا الآية:

---

(٢٣) رواه مسلم من حديث الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ برقم: ١٠١٧.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾

(المجادلة: ٢٢)

ثــم يقول: ويؤخذ محمد بعد ذلك بعاطفة من حنان تجعله يسهو فيقول ثانيًا:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾

(لقمان: ١٥)

ونقــول لهــم: وما ذنبنــا نحــن إن كان هــؤلاء لا يفهمون العربيــة، لا بســليقة اللغة، ولا بإتقان الصنعــة، نريد منك أن تخبرنــا في لغتك: ما هــو الود؟ وما هو المعــروف؟ فالآيتان لــم تَرِدَا على شــيء واحد، بل جاءت الأولــى في الود، وجاءت الثانيــة في المعروف، ولو أن الآيتين وردتا على شــيء واحد، لأمكن أن يقال: هناك تناقض.

ما هو الفرق بين الود والمعروف؟

الــود: حب القلب، وحــب القلب يدعو إلى انجــذاب القالب بتبعاته من كل مظاهر الحب، والمعروف: بذل القالب.

المعــروف تصنعه مع من تحب ومن لا تحب، وتبعات الود لا تصنعهــا إلا مــع من تحب، فــالأب الكافر لا يحبــه المؤمن بالقلــب، ولكن يصنع له المعروف، لأن الابن مأمور بأن يكون صاحب معروف حتى مع أعدائه.

الود القلبي يترتب عليه المعروف، أما المعروف فلا يترتب عليه الود القلبي، ووقائع الإسلام الدالة على ذلك كثيرة.

فسـعد بن أبي وقاص حين أسـلم حلفت أمه ألا تأكل، ولا تشـرب، ولا تغتسل، ولا تقوم من الشمس، فقال سعد لقومه: دعوها، فـإن آذاها القمل اغتسـلت، وإن عضها الجوع أكلت، وإن أصابها الظمأ شـربت، وقال لها: يـا أمي، والله لو أن لك مئة نفس ونفس، ثم فاضت منك نفسًا نفسًا على أن أترك دين محمد ما تركته.

هذا هو الذي صنعه الإيمان.

الحب لا يتسع لأمرين أبدًا، لأن الله يقول:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ ﴾

(الأحزاب: ٤)

ولذلك حينما يطلب الله من المؤمن ألا يجعل حب الدنيا في قلبـه، فلأن الله يريد أن يكـون قلب المؤمن منزله ولا يريد أن يجعل معه في القلب سواه.

والدليل علـى ذلك: أن الذين آمنوا خلعـوا من قلوبهم الود لكل كافر، ولو كان ودًّا غريزيًّا أو عاطفيًّا، كما حدث من سعد.

وهناك مثل آخر ففي موقعة بدر كان سيدنا أبو بكر بجانب النبي ﷺ، وابن له كان ما يزال كافرًا يحارب معهم في صف ضد أبيه، ثم أسلم الولد بعد ذلك فقال الولد لأبيه:

يـا أبت، لقد رأيتك يوم بدر، فعزفـت عنك مخافة أن ينالك شـيء فقال أبو بكر -رضي الله عنه- والله يا بني لو تراءيت

لي يوم المعركة لقتلتك.

كلاهما صادق، لأن أبا بكر يقارن بين بنوة وربوبية، فيرجح عنده جانب الربوبية ولكن ابنه يقارن بين أبيه وبين لا شيء؛ لأنه تبين أنه لا يؤمن بأصنامه، وإلا لدخلت في المقارنة بدليل أنه تركها وأسلم.

كل ذلــك دليل على أن الحب الإيماني إذا تمكن في القلب لا يوجد فيه فراغ لأن يحب شيئًا آخر.

ونحن نلاحظ أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأبو سفيان رجل له مكانته وســيادته، وكان يقال له: ســيد العيــر. وأم حبيبة حين أســلمت وهاجرت مع زوجها ـ وكانت تحبه ـ وشاء الله أن يخلصها للحب له وحده، والإيمان به، فأغراه أحد الأحباش بالنصرانية فتنصر، وبقيت هي على دين الإسلام.

إذ ثبت أنها آمنت لا لأن زوجها آمن، وهاجرت لا لأن زوجها هاجر، لذلك لم يكن لها من مكافأة عند الله وعند رسوله إلا أن يطمئنهــا إلى أن العوض عند اللــه، فعوضها عن زوجها الذي تنصر، بأن تزوجها رسول الله ﷺ.

ولم ينتظر رسول الله ﷺ إلى أن تذهب إلى هناك، بل جعل النجاشي يعقد لها عليه، حتى يعجل لها بالعوض، وأصبحت أمًّــا للمؤمنين، وحين تصبح أمًّا للمؤمنيــن يكون قد ألزم كل المهاجريــن بأن يكونــوا في خدمتها، وطــوع إرادتها، يذهب زوجها، فيصبح المسلمون في الحبشة كلهم رعية لأم حبيبة.

وبعــد ذلك تأتي إلى المدينة، ويذهب إليها أبوها، فتمنع أبا

سـفيان من أن يقرب فراش رسول الله؛ لأنه مشرك، وهذا هو ما يفعله الإيمان في القلوب.

فـلا يوجد ود في قلب مؤمن لغير الله، ولغير من يشـترك معـه في حب اللـه، والإيمان بالله، الود العاطفي، والجسـدي يذهب، ويأتي الإيمان كما حدث لمصعب بن عمير ﵁.

ومصعـب بـن عمير تربـى في النعيـم، ولما أسـلم عاش الكفاف، ولكنه كان أول داعٍ إلى الإسـلام في المدينة، والتقى بالكفـار في غزوة بدر، وكان له أخ اسـمه أبـو عزيز يحارب مع الكفار، وقد وقع أسـيرًا في يد أنصاري اسمه «أبو اليسر» ومر عليه أخوه مصعب وهو أسـير، فقال لآسـره: اشدد على أسـيرك، فإن أمه غنية، وسـتفديه بمال كثير، فقال أخوه له، أهذه وصاتك بأخيك؟ قال مصعب: هذا أخي ولست بأخي.

مـن هنا تعلم أن الود الإيماني عمل قلبي بحت، والمعروف إحساني لمن تحب ومن لا تحب.

وقالـوا: إن قرآن محمد تعرض لقضية كونية ما كان أغناه أن يتعرض لها؛ لأنها ليست من مهمة الإيمان، ولكن يشاء الله أن يوقعـه فيها حتى تكون حجة عليه، قالوا: إن القرآن يتكلم عن خلق السـماوات والأرض، ويقول: إن الله خلقهما في ستة أيام.

وهذا يعطينا أن خصـوم القرآن يقرءون القرآن، ويعملون الإحصائيـات حتى يُفْهِمونا أنهم يتكلمون عن دراسـة، وأنهم يستخرجون ما لا يستخرجه المؤمنون، لأن المؤمنين يقرءون

القرآن بقداسة أنه من عند الله.

ونقول: إن إعلان خصوم الإسلام عن هذه القضايا مقصود للــه تعالى، حتى يظهر إعجاز القرآن، ويظهر أنه من عند الله على مر العصور كما قال الشاعر:

وإذا أراد اللــه نشــر فضيلــة

طويــت أتــاح لهــا لســان حســود

إذن فالمعطيــات التي صنعها أهــل الكفر هي التي دفعت أهل الإيمان إلى الرد عليها، فبدا جمال الدين، وجلال القرآن.

آيات القرآن تنص على أن الله خلق السماوات والأرض في ســتة أيام، ولكن آية واحدة اكتشــفها أعداء الإســلام بزعمهم وقالوا: إنها فضحت محمدًا -قبحهم الله- وهي قوله تعالى:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

(فصلت: ٩)

ووضعوا تحت يومين خطين

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾

(فصلت: ١٠)

ووضعوا تحت أربعة أيام أربعة خطوط

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى

فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ (فصلت: ١١، ١٢)

ووضعـوا تحت اليوميـن خطين وقالوا: اقـرءوا الخطوط تجدوها ثمانية أيام، إذن محمد سـها حتى قـال: إنها ثمانية أيام.

نقول لهم: أنتم لم تفهموا معطيات القرآن، لأنه نزل باللسان الفصيح الوضيح، كل حرف فيـه له معانٍ، والحس الصحيح هـو الذي يـدرك المعلومة القرآنية الصحيحـة، والعربي يقرأ القرآن بملكته، وسـاعة يقرأه بملكته يستطيع أن يضع اللفظ في مكانه المناسب وإن لم يكن منقوطًا.

الـذي خلـق الأرض في يومين، وجعل في الأرض رواسـي مـن فوقها أي من فوق الأرض، وقـدر فيها أقواتها، أي أقوات الأرض، إذن ما يأتي في كلمة أربعة أيام لمخلوق ليس ابتداء، ولكنه تتمة لشيء.

الأيـام الأربعـة لم تتكلم عن خلق جديـد، وإنما تكلمت عن إتمام شيء موجود، فالله خلق الأرض في يومين، وجعل فيها رواسـي وقدر فيها أقواتهـا في تمام أربعة أيـام، كما تقول: سـرت من القاهرة إلى طنطا في ساعة، وإلى الإسكندرية في ثلاث سـاعات، فهل يكون المعنى من طنطا إلى الإسـكندرية في ثلاث ساعات؟ لا، بل من القاهرة إلى الإسكندرية في ثلاث ساعات.

إذن الآيـة دخـل فيهـا اليومـان الأولان في الأربعـة إذن لا

تحسب الاثنين مرتين، فعندنا الآن أربعة أيام.

بعــد ذلــك هناك يومــان، فالمجمــوع ســتة، فاتفقت آيات الإجمال مع آيات التفصيل وانتهى الإشكال.

وعرضــوا قضية أخرى، هي أن محمدًا يجيء بألفاظ تؤدي معاني، ولا يفطن إلى وجه التداخل فيها.

يقولــون هذا كأنهم يفهمــون العربية أكثر من القوم الذين لهــم ملكة العربية، حتى إن القرآن جــاء يتحدى ملكتهم، فلو صح ما يقولونه لســهل علــى أصحاب الملكة مــن العرب أن يردوا به على رســول الله ﷺ، وقد كانوا كافرين، ومعارضين له، ويتلمسون له الأخطاء فلو كان هناك خلل في البيان لملئوا الدنيا صياحًا.

ومــع ذلك فقد أبقى الله -تعالــى- كثيرًا من صناديد الأمة كافرين حتى يشحذوا عقولهم للتحدي، ومع ذلك لم يستدركوا على القرآن شيئًا.

قالوا: هناك آية تقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾
(آل عمران: ١٣٥)

وآية تقول:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾
(النساء: ١١٠)

أليــس فعل الفاحشــة ظلمًــا للنفس؟ وأليس الســوء ظلمًا للنفــس؟ فكيف يكون العطف بــأو وهي تقتضي المغايرة ما

كان هناك داع للعطف بأو، إلا أن محمدًا سها.

نقــول: أو تأتــي للتخييــر، والإباحة، والتقســيم، وهي هنا للتقســيم، الذي يفعل الفاحشة أو الســوء يحقق لنفسه متعة عاجلــة، وينســى العقــاب الآجــل، وهذا هــو فعل الســوء أو الفاحشــة، وفي بعــض الحالات لا يحقق لنفســه متعة، وإنما يحقق لغيره المتعة، وهذا ظالم لنفسه، لأنه سيعاقب والمتعة لغيره كشــاهد الزور مثــلًا، يحقق الفائدة لغيــره، ويبوء هو بالإثم، وهذا هو ظلم النفس، فاختلفا.

القرآن والعلم الحديث

وجاءوا بفرية أخرى هي أن أقوال علماء الإســلام متضاربة فــي قضايا القــرآن، فبينما نجد قومًا يتحمســون لكل ابتكار جديــد من ابتكارات العلــم الحديث في العصــور الحديثة ثم يذيعون ويشــيعون أن القرآن قد ســبق إلى هذه القضية منذ أربعة عشــر قرنًا وهناك أناس يؤلفون كتبًا في هذه المسألة، وهذا كلام صحيح.

وهنــاك علمــاء آخــرون ينكــرون قضايا جــاء بهــا العلم الحديــث مجيئًا يقينيًّا ومع ذلك ينفونها، لأن القرآن لا يؤيدها ويســتدلون على ذلك بكتيبات طبعــت بالفعل لبعض العلماء الذيــن ينكرون كثيــرًا من قضايــا العلم الكونيــة، لأن القرآن يتعارض معهــا، ويقصدون عرض قضية لا تدل على ما على الأرض، ولكن تتعلق في نفس جرم الأرض.

وعرضوا كتابًا ألف في هــذا الموضوع، مما يدل على أنهم اســتوعبوا مــا كتب عن الإســلام من رجــال الإســلام، فجاءوا بالمؤلفات التي تقول: إن القرآن يتماشــى مع العلم الحديث، والمؤلفــات التي تقول: إنه يعارضها، وقالوا: نريد أن نعرض قضيــة واحدة، ليســت هي ما علــى الأرض، ولكن عن الأرض ذاتها.

لقد ثبت علميًّا وتجريبيًّا ومشهديًّا وواقعيًّا أنها كرة لا سيما

بعد أن عبر الإنسان الفضاء، وصورها من الخارج فجاءت كل الصور للأرض وهي كروية.

وقالــوا: إن هناك كتابًا ألف في بلد يحكمه منطق الإســلام، -وأظنهــم يقصــدون الســعودية ـ وقالــوا: إن هــذا الكتــاب يُكــذّب كروية الأرض ويقول عنهــا: إنها خرافة، ولكن الأرض مســطوحة وجاءوا بالأدلة التي تثبت أن الأرض ليســت كروية ولكنها مسطوحة.

ونحن نقول لهم: إنَّ فَهْم واحد من علماء المسلمين لقضية قرآنيــة لا يعتبــر حُجّة على القضية القرآنيــة؛ لأن كلمة الحق شيء ثابت، والشيء الثابت لا يتغير إلى مقابل ولا إلى نقيض وما دام الشيء ثابتًا فهو مثله فيما مضى وفيما يكون.

فإذا نظرنا إلى الكون وجدنا فيه حقائق كونية ثابتة، وهي مخلوقــة لله، والقرآن كلام الله، ومــا دام الكون من خلق الله، والقرآن كلام الله، وجب ألا تتعارض حقيقة قرآنية مع حقيقة كونيــة أبــدًا، فــإن تعارضت الحقيقــة القرآنية مــع الحقيقة الكونيــة فــإن واحدة منهما ليســت من عند اللــه، وإذا التقت الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونية فكلتاهما من عند الله.

فــإذا وجدنــا حقيقة قرآنيــة تتعــرض لأن تهدمها حقيقة كونيــة، أو حقيقــة كونية تتعرض لأن تهدمهــا حقيقة قرآنية فإننــا نقــول: أنتــم المخطئون في فهــم الحقيقــة، ولا بد أن

تعيدوا النظر من جديد، لتفهمــوا الحقيقة القرآنية والحقيقة الكونيــة، لأنها إن وجدت حقيقة قرآنية هي الحقيقة القرآنية، وحقيقــة كونية هــي الحقيقة الكونية، فلا بــد أن تتفقا، فإذا اختلفتا فأنتم فهمتم حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية، أو فهمتم حقيقة كونية وهى ليست حقيقة كونية.

ضربــوا المثل بكروية الأرض ونحــن وجدنا بعض العلماء ينكرون هذا، ويقولون: الأرض مسطوحة، وبعد ذلك جعل هذا الفهم حقيقة قرآنيــة، نقول: لا، هؤلاء أخطئوا في أنهم جعلوا فهمهــم هذا حقيقة قرآنية، لأن القرآن لا يعطي هذه الحقيقة، وقد استدلوا في هذا الكتاب على أن الأرض مبسوطة وعلى أن هــذا يناقض ما جاء في العلم الحديث مــن أنها مكورة بقوله تعالى:

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا ﴾

(الحجر: ١٩)

وفسروا المد على أنه البسط.

وقال الكاتب: ما دام الله قال:

﴿مَدَدۡنَٰهَا ﴾

يعني بسطناها، فإن قلتم: إنها كرة، فلن نصدق.

هــم يؤمنون بالحقيقــة القرآنيــة، ويؤمنون بأنــه إذا قال القــرآن ذلك فلا يمكن أن توجد حقيقة كونية تخالفها ولكنهم

أخطئـوا فيمـا فهموه هـو حقيقة قرآنيـة لأن ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾ لا تعطي معنى بسطناها.

فمعنى ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾ أنك كلما وقفت على مكان من الأرض وجدت أمامك أرضًا أخرى، فهي ممدودة ولو كانت مبسـوطة علـى هيئـة مسـتطيل أو مثلث أو أي شـكل آخر فـلا بد أن تكـون لها حافـة ما دامت مبسـوطة، وإن وصلت إلى الحافة انتهـى معنى بسـطناها، ولم تعد ممدودة، ولكـن الله يقول: ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾

فأنت طالما تقف على أرض فستجد أمامك أرضًا ممدودة، وخلفك أرضًا ممدودة، وعن يمينك أرضًا ممدودة، وعن يسارك أرضًـا ممـدودة، ولا يتأتى ذلك أبـدًا إلا إذا كانت مكورة، فإذا كانت على غير هيئة التكوير لا ينطبق الواقع على قوله تعالى: ﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾.

إذن الكاتـب المتعصب لقرآنه أخطأ في فهم الحقيقة لكن لو فهمت الحقيقة لما وجدت هذا التعارض.

ولذلك قلنا: إن كثيرًا مـن الذين يحلو لهم أن يجعلوا العلم الحديث يصادم القرآن يعرضون قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾

(لقمان: ٣٤)

وَقَفُوا عند قوله:

﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾

وقالوا: إن الطب الحديث الآن يعلم ما في الرحم.

نقول: صدقت، ولكن من الذي قال لك: إن الله حينما قال:

﴿ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾

أراد: أذكر هو أم أنثى؟ بل هي عامة يعلم كل ما يتصل بالأرحام، وليس الذكورة والأنوثة فقط ويعلم إن كان الولد طويلًا أو قصيرًا، سعيدًا أو شقيًا، ذكرًا أو أنثى، طويل العمر أو قصيره، غنيا أو فقيرا إلى آخر ما يتصل بحياة الإنسان.

أخطأتم في فهم الحقيقة القرآنية، وهي ليست حقيقة قرآنية، هل يرسل الحق -سبحانه وتعالى- أحدًا ليأخذ عينة من رحم الأنثى ليحللها، وبعد ذلك يقول: ذكر هو أم أنثى؟ لا. بل إنه يعلم ولا يرسل أحدًا ليبشر به.

هو وحده الذي يبشر: قال تعالى:

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾

(مريم: ٧)

قال ذلك قبل أن يلتقي زكريا بزوجه:

وهب أن الله كشف عن بصيرة أحد كما حصل لأبي بكر فتنبأ بأن ما في بطن امرأته أنثى، فهذا إلهام من الله. فهل الله قال لأبي بكر: اذهب إلى الحمل، وخذ عينة وحللها لتعلم؟ لا.

فالله يعلم ما فــي الأرحام بدون أن يقترب من المرأة. وبدون أن يأخذ منها شيئًا ليحلله.

أمــا أن يعلموا الأشــياء بواســطة مقدمات فــلا يقال: إنكم علمتم ما في الأرحام.

إذن علينا أن نعلم أن الذين يخاصمون الإســلام يستوعبون ما قيل عن الإســلام، ســواء من الذين يفهمون الإسلام حقيقة، أو من الذين لهم إخلاص للإســلام، وليس لهم عقل الاستنباط من الإسلام.

ومــا داموا هكذا فنحن نهيــب بمثل هؤلاء ألا يدخلوا القرآن في مثل هذه المتاهة ما داموا لا يســتطيعون الاســتنباط فيه، أو البرهنة على كلامهم، لأن هؤلاء يأخذونها حجة علينا نحن، وبعــد أن يأخذوها حجــة علينــا ينقلونها لتكــون حجة على الإسلام.

الإنسان على القمر

وجـاءوا أيضًا بشـيء قامـت حوله ضجة عظيمـة، حينما وصل الإنسان إلى سطح القمر، فبعضهم أنكر ذلك، وبعضهم أراد أن يدخلها في مدلول القرآن، من قوله تعالى:

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾

(الرحمن : ٣٣)

هلل كثير من المسـلمين وقالوا: إن القرآن قد تنبأ بوصول الإنسـان إلـى القمر بهذه الآيـة، وهو يريد إخلاصًـا لدينه أن يبين سـبق القـرآن لقضايا جاءت في القرن العشـرين، لا بد أن يسـنده عقل وفكر حازم، بحيث لا يتورط الإنسان، فيمكن خصمه منه، فيكون الذي خسره من الحقائق الثابتة أكثر من الحقائق التي لم يستطع أن يدلل عليها.

هل هذه الآية نص في الموضوع إذن؟

قلنا: إن مسألة الشمس والقمر لم تأت في الآية، وإنما الذي جاء هو أقطار السـماوات والأرض، أي لا تأخذ أقطار الأرض وحدها، بل لا بد أن تأخذ معها أقطار السماوات.

ونحـن نعلم بالواقـع الفلكي الذي قالـه العلماء أن الأرض سيار من السيارات أو تابع من التوابع هو المجموعة الشمسية التي فيها الأرض. وهم قالوا: إن المجرة التي تعتبر مجموعتنا الشمسية منها، فيها مئة مليون مجموعة شمية أخرى. ونحن

بيننا وبين القمر هذه المدة البسـيطة التي لا تتجاوز ثانيتين ضوئيتين. وبيننا وبين الشمس ثمان دقائق ضوئية. ومع ذلك هي دون السماء الدنيا. فما دخل أقطار السماوات في الآية؟

إن القمـر يعتبر ضاحية مـن ضواحـي الأرض، فما الذي أدخل السماء والأرض؟

وكلمة «سـلطان» في الآية لا يمكن أن تكون سلطان العلم، لأنه لو كان معناها سـلطان العلم لدخل في اسـتطاعتنا، وما دام قد دخل في استطاعتنا فكيف يقول الله تعالى بعد ذلك:

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾
(الرحمن: ٣٥)

إذن هذه الآية لا تنطبق على هذا الواقع.

فعلـى العلمـاء أن يبحثـوا عن فهم الحقائـق حتى لا يرتد فهمهم ضدهم.

يقولون: ما معنى الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؟

معنى الاستثناء أنه ليس سلطان الناس، وإلا لم يرسل الله شـواظ النار والنحاس. فرسـول الله ﷺ عرج به إلى السماء السـابعة وما فوقها فلـو لم ترد كلمـة ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ لكذبنا رسـول الله ﷺ في المعراج. فالمعنى على هذا: إلا بسـلطان منا، هو سـبحانه الـذي يلغـي القوانين، ويلغـي النواميس، ويجعل واحدًا منكم ينفذ إلى أقطار السموات ويكون صادقًا.

فيجـب علـى العلماء ألا يغفلـوا بإخلاصهم عـن كثير من الملامح حتى لا يخسروا أكثر مما يكسبون.

وعلى هذا يجب أن نفرق بين الحقيقة على أنها حقيقة، وبين الأمر. يظن أنه حقيقة. إذن فالتصادم بين القرآن والكون جاء من شيئين:

الأول: أن تعتبر حقيقة قرآنية وهي ليست حقيقة قرآنية. وهذه فعلتك أنت.

الثاني: أن تعتبر حقيقة كونية، وهي ليست حقيقة كونية.

فإذا ما انتهيت إلى أن هذه حقيقة قرآنية بمقاييس الحقيقة، وهذه حقيقة كونية بمقاييس الحقيقة، فلا بد أن يلتقيا.

الشك في الرسول

وآخر ما أذاعه المفترون على الإسلام أن قالوا: إنكم تؤمنون بأن محمدًا مبلّغ عن ربه، والواقع ينقض ذلك، لأن محمدًا نشأ في جزيرة العرب، مع إخــوان عاصروه، ومن الذين عاصروه عمر بن الخطاب، وكان عمر أشار برأي، وأبو بكر أشار برأي، فأخذ الرسول برأي أبي بكر، فلما نزل قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(الأنفال: ٦٧، ٦٨)

قالــوا: إذن فعمــر كان له رأي أصح مــن رأي محمد وأبي بكر. إذن فقد ثبت أن مثل محمد من العرب يستطيع أن يأتي بأشياء عجيبة ومتميزة، بدليل مسألة عمر هذه، وبدليل أشياء كثيرة سبق فيها عمرُ القرآن، هذا قولهم مع خطئهم في سبق عمر للقرآن، بل هو موافقة القرآن لعمر.

نقول: هذا صحيح مثل اتخاذ مقام إبراهيم مصلى أو مثل الحجاب. وغيرهما، وهــذه ملحظيته لو أن الناس فطنوا إليها لأكــد ذلــك صدق القرآن فيمــا يأتي من القضايــا التي تتصل بالفطرة السليمة.

فــكأن القــرآن ترك لمثــل عمر أشــياء يقترحهــا بفطرته

الصافيــة، ليدل على أن الفطــرة الصافية تصل ما بينها وبين تشريع السماء.

ولكــن أين كانــت فطرة عمــر الصافية يــوم أراد أن يقتل رســول الله؟ أين كانت فطرته الصافية يــوم عاداه؛ ويوم أن ذهب إلى أخته ليقتلها لأنها أسلمت؟

إذن فالفطــرة الصافية هي التي نفض عنها الإســلام غبار الجاهليــة، ولــو تركت بغير إســلام لكانت فطرة منطمســة. فالإســلام أزاح عنها الغشــاوة التي لحقتها، والتراكمات التي أحدثتهــا الجاهليــة، ولذلك يقولها عمر نفســه: «مــن أنا لولا الإسلام»؟

مــا العلة في أن يكــون عمر موجودًا مع رســول الله ﷺ، ورسول الله يُوحَى إليه، فيقترح عمر أشياء، فيأتي بها القرآن؟ هذا هو الذي يجب أن يُسألَ عنه.

العلــة: أن الله يريــد أن يقول لنــا: أنا لم أتعبدكم بشـــيء يخالــف الفطرة الســليمة، ولو أن فطرة ســليمة فكرت بحق لوصلت إلى ما يريد الإســلام من تشريع، ولكن من يضمن أن الفطرة صافية؟

إذا جئت بمصباح تعلوه أتربة وأوساخ، فإن الضوء يحجب من المصباح، أما إذا أزحت هذا الغبار فإن نوره يسطع.

وأنت لــم تأت بزيادة ســوى أنك صقلت الفطــرة، فتجلت

الفطــرة بنصاعتها الطبيعيــة، فكأن الله تعالــى بتركه كثيرًا مــن القضايا ليكتشــفها تابع من أتباع الرســول ﷺ، أخلص فكــره للدعوة ولله، وصقلت فطرته، يقول لنا: إن هذه الفطرة تســتطيع أن تصل إلى قضايا الدين، فالله تعالى يثبت لنا أن هذه المسائل لو لم تنزل من السماء لنبعت من صفاء الفطرة في الأرض.

الخاتمة

وبعد: فلعلنا نكون قد وفقنا إلى عرض كثير من المفتريات المعــدة لنا، والتي وفد بعضها، ويوشــك بعضهــا أن يفد إلى بيئاتنا الإسلامية.

فعلــى أولياء أمــور النشء أن يعرضوا هــذه القضايا على أبنائهــم، ويعلموهم كيف يــردون عليها، وعلى الشــباب كما يفزعون فــي مطلوباتهــم المادية إلى ذويهــم أن يفزعوا في مطلوباتهم القِيَمَيّــة إليهم أيضًا، لأن مقومات القيمة أكبر من مقومات الدنيا.

وعلى أولياء الأمور أن يحســنوا إعطــاء المناعة لأبنائهم إن علمــوا الرد، وإن لم يعلموا فعليهــم أن يذهبوا إلى أهل الذكر، ليأخذوا منهم الردود التي تقف أمام هذه الوافدات.

وأمــا العلماء فعلى من كان منهم من الدعاة أن يكونوا على ذكــر مــن هذه القضايــا، وكل منهم يبصر بما لــه من علم ما يراد بالإســلام من الكيد، وأن يعرض هذه الوافدات مع الردود عليها، وأن يبالغ في تكرارها حتى تســتقر في أذهان الناس، ناشئهم وكبارهم على السواء.

وعلى العلماء أن يلاحظوا أنهم حين يتكلمون عن الإســلام فعليهم أن يجتهدوا في أن يكون إسلامهم مصفى، لأن الخلاف يستغل في أن الإسلام ليس له خط واضح يجتمع حوله الناس.

وعليهــم بعد ذلك أن يجتمعوا من كل بلاد الإســلام ليتفقوا علــى رأي واحــد فــي المســائل الخلافيــة، وحينئــذ لا يجوز للمعارض أن يعلن رأيه بعد الاتفاق.

احموا الإســلام أيها العلماء من هــذه الخلافات، فتلك ميزة الفتوى الجماعية.

لم يعد العصر يحتمل أن يكون لكل عالم فتوى، وإلا لأصبح لكل عالم جمهور ولكل عالم متعصبون، وحين يوجد ذلك فهم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شــيعًا، فيجب أن يعاملوا دينهم كما يعاملون قضاياهم السياسية.

ويجب على حكام المســلمين أن يعلمــوا أنهم بتركهم هذه الأمور فكل إنسان هاوٍ وســيكون له إسلام، وسيتمثل الإسلام فــي الســلطة المركزية، حتى يكــون لكل واحــد منهم عبادة ومساجد، وكل هذا سيفت في عضد الإسلام والمسلمين.

الله لا يمكن أن يتغير من أجلنا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾

(الرعد: ١١)

فيجب أن نتغير نحن من أجل الله، وإلا فســيظل أمرنا كما هو، وســيزداد كل يوم سوءًا على ســوء. وحين نلتفت إلى أننا قصرنا عن واجبات ديننا فذلك أول الشــفاء. أما إذا تكبرنا فلا أمل في الشفاء.

أســأل الله أن يبصر المسلمين بأهمية دينهم، وإلى الخطر الذي يحدق بهم من خصوم الإسلام من الشرق والغرب، فهما يريدان ذل الإسلام، ولا يجتمعان إلا كان الضحية الإسلام.

لا نجاة لنا إلا إذا مشينا إلى الله. وإذا مشينا إلى الله خطوة أتى الله إلينا هرولة.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الفهرس